القرآن والعلوم العصرية

خطاب إلى جميع المسلمين

" أن الصناعات والعلوم يأمر بها القرآن ،
وأن الأمراء والعلماء وأغنياء المسلمين
هم المكلفون بذلك ، وباحكام الرابطة
بين الأمم الاسلامية عموماً وغير ذلك "

من

الأستاذ الحكيم والفيلسوف الإسلامى
الشيخ طنطاوى جوهرى
رحمه الله تعالى آمين

الطبعة الثانية
١٣٧١ هـ - ١٩٥١ م

(حقوق الطبع محفوظة)

ملتزم الطبع والنشر
شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر

يا أيها النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الحَقُّ منْ رَبِّكُمْ
[قرآن كريم]

الحمد لله ربّ العالمين . والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا (مُحَمَّدٍ) وآله أجمعين .

أيها المسلمون « الدِّينُ النَّصيحَةُ لله ولرَسولِه ولكتابِه ولأئمَّةِ المُسلمينَ وعامَّتِهِمْ » وقد جعل الله سائر نوع الإنسان فى خسر إلا المؤمنين الصَّالحين ، الذين يوصى بعضهم بعضا بالحقّ وبالصبر عليه فقال (وَالعَصْرِ إنَّ الإنْسانَ لَفِي خُسْرٍ إلاَّ الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَتَواصَوْا بالحَقِّ وَتَواصَوْا بالصَّبْرِ) ونعى على قوم تهاونهم فى النصح والإرشاد فقال سبحانه وتعالى (كانُوا لايَتَناهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ ما كانُوا يَفْعَلُونَ) وقال صلى الله عليه وسلم « لَتَأْمُرُنَّ بالمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ ، أوْ لَيُسَلِّطَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ شِرارَكُمْ ، فَيَدْعُو خِيارُكُمْ فَلا يُسْتَجابُ لَهُمْ » وأنا بهذا الكتاب أنصح أمَّتى ، شرقيها وغربيها . أسودها وأبيضها ؛ فأقول :

ايها المسلمون

أدعوكم إلى كتاب الله وسنة رسوله . والنظر فيهما بالعقل الصحيح والرأى الرّجيح . والعمل بهما . المنجى فى الدنيا والآخرة . أدعو إلى ذلك سكان آسيا من صينيين وهنديين وأفغان وماليزيين وسكان جزائر الهند الشرقية من الجاويين وغيرهم وأبناء العرب والفرس وأبناء الترك . كما أدعو أهل أفريقيا من العرب والبربر وسكان الصحراء الكبرى وما جاورها وأهل السودان . كما أدعو منكم سكان أوروبا القاطنين بالبلاد الرّوسية وغيرها . أدعوكم جميعا إلى الاتحاد لتنجوا فى الدنيا والآخرة من العذاب المهين .

أيها المسلمون : إن ربكم واحد . ونبيكم واحد . وكتابكم واحد ، وقبلتكم واحدة . وأوقات صلواتكم متحدة . وشهر صيامكم واحد . والزكاة عليكم جميعا . والحجّ وتوحيد الله عزّ وجلّ .

فهذه أركان الإسلام وأساسه قد اتحدتم فيها . أفليس ذلك دعوى خفية من المبدع الحكيم الرّحمن الرّحيم موجهة إليكم أن تكونوا فى الحياة العملية يدا واحدة كما اتحدتم فى العبادة ؟ .

أمر النبىّ صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يصلى بالناس فى مرض موته . فلما توفى صلى الله عليه وسلم قال بعض الصحابة رضوان الله عليهم : إن نبينا صلى الله عليه وسلم قد ارتضى أبا بكر لديننا أفلا نرضاهُ لدنيانا ؟ فولّوْهُ خليفة عليهم .

هكذا هنا نقول جعل الله العبادات واحدة بين المسلمين . فأمّوا فى الصّلاة بيتا واحدا وحجّوه وصاموا شهرا واحدا وهكذا .

وذلك صلاحهم فى العبادة ونجحهم . أفلا يكون صلاحهم الدنيوى ونجحهم السياسى متوقفا على الاتحاد ؟ .

العبادات توقفت صحتها على الاتحاد فى الوجهة والوقت . وهكذا أحوال الدنيا . لن ينجح المسلمون فى حياتهم ولا نظامهم ولا اقتصادهم إلا إذا آخى الإفريقى منكم الأوروبى . وعرف ساكن الصحراء الكبرى المسلم الصينى . وتصافح السودانى منكم والتركى . وتعانق الهندى منكم والقفقاسى . فكونوا يا عباد الله إخوانا . هكذا يأمركم الإسلام .

أيها المسلمون : لمَّا كانت تلك الإشارات الباهرة والبينات الواضحة الداعية إلى الاتحاد قد يغفل عنها العامَّة والجهلاء . ولا يعقلها إلا الأذكياء النبلاء . ذكر الله الاتحاد صريحا فى كتابه العزيز فقال تعالى :

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا . وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا) .

ولمَّا كانت الآية توجب الاتحاد وعدم التفرقة كانت مخالفتها موجبة للعقاب فى الدنيا والآخرة ؛ لذلك قال تعالى فى آية أخرى (وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ) فانظروا يا معشر المسلمين أليس ما نحن فيه الآن جزاء التفريط والتقاطع والتدابر بما أحاط بنا من الجهل والإهمال والنوم على بساط الراحة آمادا طويلة . أليس هذا مصداقا للآية . وأصبح المسلم فى أقاصى

آسيا يتألم لما يصيب أخاهُ التركى فى أوروبا . والعربى فى الصحراء الكبرى والسُّودانىّ فى خطّ الاستواء . إنهم سواء فى الظلم .

وهنا تبيَّنَ لكم سرّ الحديث الشريف . كما فى البُخارى « مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَوَاصُلِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّى وَالسَّهَرِ » وفى البخارى أيضا قال صلى الله عليه وسلم « الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا » أترضون للمسلم العظيم القدر الشريف المنزلة أن يوصف بعدم العقل . تلك الصفة التى مَيَّزت الإنسان عن الحيوان ؟ كلا إنكم لاترضون بذلك . إذن فكيف تفرّقتم وتباعدتم ولم تتحدوا فى أعمال الحياة ؟ ولقد وصف الله أقواما بأنهم لايعقلون لسبب اختلافهم وتفرّقهم . فقال تعالى (تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذلكَ بأنهُمْ قَوْمٌ لايَعْقِلُونَ) .

أيها المسلمون : أنتم ملوك الأرض ، وسادات الأمم ، وأشراف المسكونة ، وعظماء العالم ، ألم يقل ربكم (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) ثم شرح جلّ جلاله ذلك الشرف والفضل والمزية ، فقال تعالى (تَأْمُرُونَ بالمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بالله) .

تلكم كانت صفات آبائكم الأوّلين ، من الخلفاء الراشدين ، والملوك العادلين من سائر الأمم والأجناس ، فكانوا هداة للناس ورحمة للعالمين ، وكانت لهم قدم صدق فى فتح البلدان ليعيش الناس

فى سلام . ويتحدوا دينا ولغة وخُلُقا : فيكونوا إخوانا على سرر متقابلين .

أنتم خير أمَّة أُخرجت للنَّاس ؛ إذ كانت تدين لآبائكم الملوك والقياصرة وعظماءُ الأرض ليهتدوا بهَدْى الإسلام ، ويصبحوا رحمة بعد أن كانوا نِقمة بالجهالات المتراكمة .

ولقد تناقص ذلك فيكم اليوم . وأخذت أمم الفرنجة تنقصنا من أطرافنا وتسومنا الخسف وتوقع بنا النكال ، بعد أن هذبناهم وعلمناهم ورَبَّيْناهم ؛ ولكن أبى الله إلا أن يبقى للإسلام بهجته ونضرته وجماله وعظمته ، فانه لايزال إلى اليوم يهتدى به أُمم كثيرة ، فإن فى كفار الهند كل سنة خمسمائة ألف أو يزيدون منهم فى دين الله يدخلون . وكذلك فى أفريقية ، فالإسلام قائم بعمله (وَيأبى اللهُ إلاَّ أنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكافِرُونَ) .

الإسلام دين علم وعمل

أيها المسلمون :

الإسلام دين علم وعمل ، ولمَّا ضلَّت الممالك الإسلامية الكبرى سواء السبيل ، فجهلت العلوم الكونية والعقلية ، لم يصلحوا لهداية العالم المتعلم ، فنبذهم الإسلام فلم يُنْصرُوا على أعدائهم من الأوروبيين وأصبح المسلمون يلتمسون العلوم من الأمم الأوروبيَّة ، ويستضيئون بأنوارهم ويهتدون بهديهم ، ويرتوون من مواردهم ويكرعون من مشاربهم . أوَليس ذلك دليلا على أن الأمم الإسلامية الكبرى جهلت الحقائق . وظنَّت أنَّ المسلم لايعنيه العلم والجهل يكفيه والقوت

يرضيه . وهو غافل عما أبدع الله فى الأرض والسموات وبرأ فيهما من البدائع . وأحسن فيهما من صنع وأبدع وأجاد وذرأ من كل زوج بهيج . لهذا السبب ذهبت الأمم الإسلامية فأصبحوا لاترى إلا آثار آبائهم . لأن الجهل بالعلوم خيم فيما بينهم وضرب عليهم سرادقاته . فضربهم الدهر ضرباته . فذل العزيز وعز الذليل وخضع العظيم وعظم الحقير (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء . وتنزع الملك ممن تشاء . وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل شىء قدير) .

كنا الجهابذة الكبار كم قائد سلك القفار
وبجيشنا قطع البحار وطغى على أعدانا
إنا ملكنا المشرقين إنا ملكنا المغربين
إنا قرأنا الحكمتين العلم والإيمانا

ألستم أنتم السواد الأعظم فى الكرة الأرضية ؟ ألم يأمركم الله أن تأخذوا حذركم ، وتبنوا مجدكم ، وترفعوا رءوسكم ، وتتعلموا ما نشر الله فى الأرض من علم ، وما أنعم به من صناعة ؟ .

فصل

فى وعد الله للمسلمين بالتمكن فى الأرض والاستخلاف فيها

ألم يقل فى كتابكم الكريم (وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَيُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ) .

أليس هذا كلام ربكم . المنزل على نبيكم . وأنتم المخاطبون به . فبالله عليكم يا معاشر المسلمين فى أقطار الأرض ، أنتم اليوم أكثر عددا وأعظم مددا . فماذا جرى حتى عجبنا كل العجب من أنا مسلمون . وقد تخطانا هذا الوعد . بأن يستخلفنا الله فى الأرض . ويمكن لنا فى الأرض . ويبدلنا من بعد خوفنا أمنا . والتمكين فيها وتبديلنا من بعد خوفنا أمنا وعد من الله لنا والله لايخلف وعده . قال تعالى (وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ) .

يعجب المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها . المسلمون الذين يبلغون ٣٥٠ مليونا من بنى آدم . يعجبون ويقولون نحن مسلمون . ونحن نعمل الصالحات . فأين استخلافنا فى الأرض . ونحن أينما توجهنا فالقتل على رقابنا . والذل محيط بنا . وأمم الفرنجة يطاردوننا .

فصل

إن المسلمين ينقصهم أمران : الاتحاد ، والعلم

أقول : على رسلكم يا معاشر المسلمين ، لاتظنوا أن عمل الصالحات قاصر على ما تعملون . فانكم ينقصكم أمران : الاتحاد فيما بينكم . عربيكم وعجميكم . وأبيضكم وأسودكم وأصفركم ، والعلم بما ذرأ الله فى السموات والأرض من عجائب الخلقة ، وبدائع الحكمة . ونظام البرية . وما أبدع فى السموات من كواكب ، وما بث فى الأرض من دابة ونبات ، ودليلى على ذلك قوله تعالى (أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ ، وأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ، فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ) بهذا أنذركم الله تعالى إذ قال (وأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ) فكأنه وعد بالاستخلاف المتقدم للأمة الإسلامية ، النظرة فى ملكوت السموات والأرض ، المفكرة فيما خلق الله ، المتعلمة كل صناعة وحرفة ، حتى لايفوتها صنعة من المدفع إلى الإبرة ، ومن القطار إلى المنشار ، ومن علم الطبيب والبيطار إلى صناعة الموسيقار ؛ نعم وعدنا الله بالاستخلاف فى الأرض إذا فقهنا وعقلنا كلامه .

أو ليس من العار أننا غفلنا عن السير فى الأرض ، والأخذ بما هو أجمل وأحسن ؟ وقد عقلت الأمم وتعلمت وجهلنا ، وارتقوا وانحططنا . فلذلك جاء القرآن موبخا ومنكرا على الجاهلين (بما أبدعت الأمم من الصناعات ، وما أنشأت من المصانع . وما أحكمت

من بناء . وما عممت من زراعة . وما أحسنت من صناعة . وما أقامت من سياسة . وما نظمت من طرق . وما أرسلت من قطار . وما أطارت من بخار . وما سيّرت فى الجوّ من طيارات ومناطيد . وما بنت من مدارس . وما علّمت من تلاميذ . وما رفعت من صروح) فقال الله تعالى (أفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الأرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا . أوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا) .

ولمّا كان المسلمون كثيرا ما يسيحون فى الأرض . ويرجعون إلى أوطانهم بِحُفَّىْ حُنَيْنٍ . ثم هم لا ينذرون قومهم إلا قليلا ، ولا يعتبرون بما رأَوْا . ولا يرسلون جماعة منهم تتعلم إلا قليلا ، أردفه الله تعالى بقوله (فإنَّهَا لا تَعْمَى الأبْصَارُ . وَلَكِنْ تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ) .

أيها المسلمون : إنه لينقصكم أمران : الاتحاد ، والعلوم ، فاذا اتّصفتم بهما تمّ وعد الله لكم فى الأرض بالاستخلاف والتمكن فى الأرض . وأن يبدّل خوفكم أمنا فى الآية المتقدمة ، وها أنا ذا سأشرح لكم كيف تتحدون ، وكيف ينشر العلم بينكم فى هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

ضرب مثل لحال المسلمين مع غيرهم

ألا إنما مثل المسلمين المستبصرين وغيرهم ، كمثل جماعة سافروا فى طريق طويل . فأخذ جماعة يركبون الإبل والبغال والحمير والخيل وأخذ جماعة آخرون يركبون القطار . فتخلّف الأوّلون وفاز الآخرون . وحجة الأوّلين أنهم يتبعون ما سنّ آباؤهم ويتغنون بحدائهم ويترنمون بأشعارهم فوق إبلهم . وحجة الآخرين أن العقل

يقضى أن نأخذ بالأحسن والأقوى والأسهل . ويقولون قال الله تعالى (فَبَشِّرْ عِبَادِ . الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ) فالله عزّ وجلّ بشّر العباد الذين يتبعون أحسن القول . ولا جرم أن التول بركوب القطار أحسن من القول بركوب الإبل . أفليس من العار علينا أن يسبقنا الأمم ونحن عاقلون متفكرون ؟ .

معنى الجهاد

(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) قال الله تعالى (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ؟ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ . وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ) .

هذه الآية ذكر فيها الله لنا تجارة . ودلّنا عليها ، وجعل تلك التجارة تنجينا من عذاب أليم . ما هى تلك التجارة : هى أن نؤمن بالله ورسوله ونجاهد فى سبيل الله بأموالنا وأنفسنا ، وضمن لنا بذلك أمرين : الجنة فى الآخرة والنصر فى الدنيا . طلب الله منّا أمرين وضمن لنا أمرين . طلب الإيمان والجهاد . وضمن الجنة فى الآخرة والنّصر فى الدّنيا . أما الإيمان فمعلوم . وأما الجهاد فأنا أشرحه لكم .

يظنّ الجهال أن الجهاد إنما هو حرب الكفار وحده . كلا :

إنّ الجهاد كما نصّ عليه علماء الفقه لا يخصّ حرب العدوّ . بل يشمل سائر الأعمال العامّة . فترقية الصناعة والزراعة ونظام المدن . وتهذيب النفوس . وإعلاء شأن الأمّة . كل ذلك جهاد لا ينقص عن توجيه البندقية والمدفع إلى صدر العدوّ .

إنّ الصنف المجاهد المحامى للعدوّ لن يقدر على هذا الموقف إلا إذا كان وراءه حكومة فى بلاده منظمة . فيها صناعات محكمة لتصنع له المدافع والبنادق . ولتزرع الأرض ولتسمدها . ولترسل له الذخيرة : فمن ظنّ أن زارع الأرض المستخرج ما فيها . والحدّاد والصانع للمدفع والقطار والنجار المكمل لكل منهما والخبّاز الخابز لهما وللجندى . من ظنّ أن هؤلاء أقلّ أجرا فى الآخرة من الجندى الذى أُحضرت له أعمال هؤلاء وهو فى معمعة القتال . فقد جهل الدين وطاش سهمه وهو من الغافلين .

إن النبىّ صلى الله عليه وسلم لما رجع من إحدى غزواته قال « رَجَعْنا منَ الجِهادِ الأصْغَرِ إلى الجِهادِ الأكْبَرِ ، جِهادِ النَّفْسِ » أفليس ذلكم يا معاشر المسلمين دليلا على أنّ جهاد النفس أرقى من جهاد العدوّ . وجهاد النفس بترك الكسل ، وباحكام الصَّنعة . وبترقية شأن الأمة ، وبالسياحة فى الأرض ، وبترك الشرّ وتهذيب النفس . فالمهذّب لنفسه مجاهد . والمحكم لصنعته مجاهد . والمسافر ليعلّم المسلمين ما شاهد مجاهد . والعالم مجاهد . ولقد ورد ما معناه : إنّ مداد العلماء كدم الشهداء . ولعمرى لقد عظم أمر العالم وفاق شهيد المعركة . ذلكم العالم الذى يزرع العلم والبركة

فى نفوس آلاف من الناس هو خير من آلاف من الشهداء . فها أنا ذا قد بينت معنى الجهاد . والإيمان واضح من نفسه .

ولا جرم أن الله ضمن لمن جاهدوا هذا الجهاد أن يدخلهم الجنة ، وينصرهم على عدوّهم : فليجاهد المسلمون ، وليعرفوا جميع العلوم والصناعات التى منها العُدد الحربية والآلات الصناعية والخدع الحربية والسياسات المدنية . فانّ الله ضامن لهم النصر : هذه سنة الله (فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً) وليس النصر مضمونا لنا ونحن غافلون ، إن الله أمرنا بالنظر والتعقل والتفكير . أوَ ليس هو سبحانه القائل للمسلمين وهم يصلون صلاة الخوف فى الحرب (وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً) فاذا كان الله تعالى يقول لنا ونحن فى الصلاة وقت الحرب خذوا حذركم خذوا أسلحتكم ، فان الكفار ربما مالوا عليكم ميلة واحدة فقتلوكم فهل مُنزّل هذا يرضى عن أمة تنام عن العلوم والمعارف والصناعات؟ هل ينصر أمة غافلة ؟ إن الله وعدنا النصر بعد الجهاد الكامل بالعدد التى تناظر ما عند العدوّ التى صرّح بها فى قوله تعالى (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ) ولقد أطلت فى هذا المقام لتبيين السبيل ، ولنشرع فى تبيان طريقة اتحاد المسلمين ، ثم نتبعه إن شاء الله بالطريقة التى تنشر العلم على الوجه الأكمل .

طرق اتحاد المسلمين

وقبل الدخول فى هذه الطرق نبين تعداد المسلمين على سطح الكرة الأرضية من كتاب جلال نورى بك ، لأن الاتحاد يكون بعد معرفة من هم الذين يتحدون .

المسلمون كثير عددهم

أيها المسلمون : ما أكثر عددكم على وجه الأرض

	مليون
إن منكم فى بلاد الهند الصينى والصين	٧٠
وفى الهند وما جاورها	٧٥
وفى ماليزيا والأقيانوسية	٥٠
وفى ولاية الحجاز واليمن بأقسامها المستقلة وغير المستقلة وعسير وعدن والنواحى التسع وعمان ومسقط والبحرين وحضرموت ونجد والكويت والربع الخالى وعنزة وشمر	١١
وفى سوريا وفلسطين والعراق العربى والعراق العجمى	٦ر٥
وفى مصر والسودان المصرى	١٨
وفى طرابلس وتونس والجزائر ومراكش	١٨
وفى الصحراء الكبرى والسودان الفرنسى	٢٠
وفى السنغال وما يتصل به والسودان الأوسط وَوَادَاى وباكومى وما حواليها	٥
وفى جمهورية ليبريا	٠ر٥
الجميع	٢٧٤

	مليون
ما قبله	٢٧٤
وفى السودان الإنجليزى والنيجر وما حولهما	٨
وفى مستعمرات الكمرون الألمانية والكونغو والكاب ودوزنبيق ومدغشقر وشرق أفريقية الألمانى وزنجبار وشرق أفريقيا الإنجليزى وأوغندة والحبشة وأرتريا وما يتصل بها	١٠ ر ٥
والأتراك فى روملى وجهات الأناضول والبلقان والولايات العثمانية التى معظمها من غير المسلمين	١٥
وفى ولاية روسيا الأوروبية ومنها التتر الذين هم أهم قسم من الأتراك . وفى قفقاسية وآسيا الوسطى وفرغانة وسيبريا وخيوة وبخارى	٣٥
والترك فى الشمال والشمال الغربى من بلاد الصين	٢٥
وفى بلاد أفغانستان وفى بلاد إيران والعجم	١٠
الجميع	٣٧٧ ر ٥

فيكون جميع المسلمين فى أقطار الأرض ٣٧٧ر٥ مليونا . والمتأمل فى هذا يجد عشرين مليونا مكرّرة . وإذاً نقول إن المسلمين ٣٥٠ مليونا تقريبا . فسألتكم بالله أيها المسلمون كيف يغلب هذا العدد الكبير والجمّ الغفير . وكيف يصادرون فى حرّيتهم . ويذلّون فى عُقر دارهم . ويسامون سوء العذاب . كلّ ذلك من الجهل والتفرّق وعدم الاتحاد . وقد آن أوان أن أشرح طرق الاتحاد . عسى أن يكون فيه ذكرى لإخوانى المسلمين .

طرق الاتحاد

كيف يتحد المسلمون

أيها المسلمون : هذا المجموع الكبير العظيم الممتدّ من بكين في الصين إلى رأس الرَّجا الصالح . ومن طنجة إلى المحيط الهندى . هذا المجموع جسم له رأس وأعضاء . وقد ذكرنا الحديث الشريف إذ جعل المسلمين كالجسد الواحد إذا اشتكى بعضه تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمَّى . هذا بعينه ما يحصل الآن فى أطراف المعمورة . فان المسلم الإفريقى يتألم لما يصيب أخاه الصينى ويسرُّه ما يسرُّه . قال تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) ولا جرم أن الأخ الأرشد واجب عليه وقاية الأصغر . والمحافظة عليه وتربيته وترقيته . فعلى العقلاء والعلماء والأمراء والأغنياء من العرب والفرس والترك والهنود والصينيين أن يكونوا جماعة تتخذ لها مركزا خاصا (ولعلها الآن موجودة) .

وإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم شبه الأمَّة كلها بالجسم ، فلنهج منهجه عليه الصلاة والسلام ، ولننسج على منواله مُبَيِّنين بالعقل صحة ما توخَّينا والطريق التى ارتضينا ، فنقول :

إن فى الجسم رأسا ، هو مركز الحواسّ من السمع والبصر والشمّ والذوق واللمس . ومنه تصدر جميع الأعصاب الحساسة وإليه ترد ما نقلت من أخبار السمع والبصر الخ . فالرأس هو القائم بأعمال الجسم المنظم لحركاته . فلو تخلى الرأس عن الجسم لأصبح جثة هامدة لا تغنى ولا تسمن .

هكذا العلماء فى هذه الأمة والأغنياء والأمراء والعقلاء المفكرون المستبصرون ، هم المسئولون فى الدنيا والآخرة ، وهم وحدهم الذين يقفون بين يدى الله تعالى يسألهم عزّ وجلّ عن إهمالهم أمر هذه الأمة ويسأل الله عزّ وجلّ المفكر والعالم والأمير والغنىّ ، ويقول لهم : أنتم رأس هذه الأمة وقوّتها فماذا فعلتم ؟ تركتم هذا المجموع يئنّ تحت نير العبودية والذلّة ، وهذه الطوائف الإسلامية من أقصى الأرض إلى أقصاها جعلتها أمانة عندكم ، فكيف تشاغلتم عنها حتى أصبحوا أذلاء ، وأنتم شاركتموهم فى ذُلهم وقاسمتموهم ضعفهم وانكسارهم ؟ ألم أنزل عليكم فى كتابى (لايُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَها) فها أنا ذا لاأكلف الزارع المسكين ولا الحمّال ولا البدّال هذا الأمر ، أولئكم عيالكم وإخوتكم الصغار ، وإنما أكلف أرباب العقل ورجال الحكمة وأهل المال ، أولئك هم المسئولون (وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ) ألم أنزل فى كتابى على نَبِيكم (لَوْلا يَنْهاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ والأحْبارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وأكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ ما كانُوا يَصْنَعُونَ) ومعنى هذا أن الله يوبخ علماء أهل الكتاب من الأحبار والرُّهبان على عدم نهيهم الأمة عن قولها الكذب الذى يأثم به الإنسان ، وعن أكلها السحت : أى الحرام ؛ ثم بالغ فى ذمّهم فقال : لبئس ما كانوا يصنعون : مبتدئا بلام القسم ، وهذا مبالغة فى التوبيخ ، أفلا تعلمون أنى قصصت عليكم ذلك لتعتبروا ، ولتتذكروا أيها المسلمون ، ألم يقل لكم نبى محمد صلى الله عليه وسلم « لاتَزُولُ قَدَما ابْنِ آدَمَ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ يَوْمَ القِيامَةِ حَتَّى يُسأَلَ عَنْ خَمْسٍ : عَنْ شَبابِهِ فِيمَ أفْناهُ ،

وَعَنْ عُمْرِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ . وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ ، وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ » ألم يكن فى هذا الحديث دلالة على أن العالم والغنىّ شريكان فى المسئولية وكلاهما مسئول ؟ . العالم مسئول . والغنىّ مسئول . وفى حديث البخارى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال (لاحَسَدَ إلاَّ فى اثْنَتَيْنِ : رَجُلٌ آتاهُ اللهُ مالاً فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فى الْخَيْرِ ، وَرَجُلٌ آتاهُ اللهُ عِلْما فَهُوَ يَعْمَلُ بِهِ وَيُعَلِّمُهُ النَّاسَ) .

والمراد بالحسد الغبطة ، وهى تمنى مثل ما عند الغير ، فالى الأغنياء وإلى العلماء والمستبصرين من الأمة أوجّه قولى ، فلقد اتضح أنهم المسئولون يوم لاينفع مال ولا بنون ، فأقول :

لتكن منكم جماعة خاصة تكون بمنزلة الرأس ، ولتتخذ لها مكانا ، وليكن لها فروع تمتدّ إلى أقاصى المعمورة ، أشبه بالأعصاب فى الجسم ، ولتكن أعمال تلك الجمعية مقسمة إلى قسمين :

القسم الأوّل يأمر بنشر الأخلاق والعبادات والعلوم والصناعات فى سائر أقطار الإسلام ، وينشر الكتب والرسائل ، ويعلن فى الجرائد ويوعز إلى أهل البلاد باذاعة ذلك كله مع المحافظة التامّة على العوائد الإسلامية ، وَلْيُحَبِّبُوا إلى النَّاس أن يعرفوا ما ذَرَأَ الله فى الأرض وما أبدع فى السماء ، وما أفاد من صناعة ، وما بَثَّ من حكمة حتى يضارعوا أوروبا ويفوقوها اقتصاديا ومادّيا .

والقسم الثانى يكون قصارى أمره ومنتهى رأيه أن يدرس أعمال أوروبا مع الأمم الإسلامية فى أقطار العالم ، وينشر ذلك فى جميع الأقطار الإسلامية ، ليعرفوا إخوانهم النابهين من الترك والفرس

والعرب والصين والهند . تلك الأمم القديمة الشرف العظيمة القدر . ومتى انتشر ذلك فى الأقطار الإسلامية . عرف المسلمون إذْ ذاك للجاهل جهله وللفاضل فضله . وإذْ ذاك يقرءون (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا) فيقاطعون الدولة المسيئة فى التجارة . سواء أكانوا فى الصين أم فى أفريقيا أم فى تركيا . ذلك شأن هذه الطائفة . ولعلكم تقولون : من أين عرفت أن هذه الجمعية بها يتحد المسلمون وهل هذا دواء شاف ؟ .

أقول : عرفت من نفس القرآن . فانظروا الآية المتقدمة ، الحاضّة على الاجتماع . وهى :

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا ، وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانا . وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا . كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) هذه الآية أمرت المسلمين بالاجتماع وعدم التفرّق ، ولكنها لم تبين كيف السبيل إلى ذلك ، ولذلك أردفها بآية أخرى لبيان ذلك فقال (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ) وهذا هو الفريق الأوّل الذى ينشر العلوم والمعارف والصناعات ، ويحض على العبادات الدينية ، ثم قال (وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) وهذا هو القسم الثانى ؛ فالنهى عن المنكر هذا يشمل الذنوب الخاصة بين المسلمين والكفر والمعاصى والمظالم الواقعة عليهم فى مشارق الأرض ومغاربها ، فأولئك هم الذين يجمعون تلك المظالم ويوصلونها إلى الجمعية الكبرى . وهى

بسبب هذا القسم وبعمله تنشر أخبار تلك المنكرات فى أقطار الأرض حتى يفرّ المسلمون من هذه المظالم ويقاطعوا تجارة الأمّة الظالمة ، وإذن يحق لهم وعد الله إذْ قال (وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً) هذه الآية ذكرناها مرّة أخرى فى الكتاب وأعدناها هنا بعد أن بينا طريق الاتحاد بين المسلمين ، تلك الطريق التى هدانا الله لاستخراجها من الكتاب العزيز ، لاسبيل إلى إسعاد المسلمين بغيرها ، ولا سبيل لإراحتهم وتمكينهم فى الأرض واستخلافهم فيها ، وتبديل خوفهم أمنا إلا بهذه السبيل وحدها ، فليفكر المسلمون ماشاءوا ، فهم والله لاينجون من شرّ الفرنجة إلا بهذه السبيل وحدها ، ولنقرأ الآية على وجهها فنقول (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) فانظروا يا معاشر المسلمين كيف قال (وَلْتَكُنْ) فاللام لام الأمر للوجوب ، فالمسلمون فى أنحاء المعمورة : أى الأغنياء والعلماء منهم آثمون مذنبون إن لم يقوموا بهذا الأمر ، وبعد أن بَيَّنَ القسمين وهم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر قال (وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) إشارة إلى ما ينالون فى الدّنيا من الطمأنينة والسعادة والثناء الحسن عليهم من الأمة الإسلامية ، وفى الآخرة من علوّ

الدرجات ومنتهى السعادات والقصور والحور والولدان . فهذا قوله (وأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) ولمَّا كانت الآية مبينة كيف يكون اتحاد المسلمين ، وسهلت الطريق وأبانت حقيقتها الناصعة ، أردفها بالإنذار فقال (وَلا تَكُونُوا كالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ ما جاءَهُمُ البَيِّناتُ وأُولَئِكَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ) وهذا إنذارٌ من الله للمسلمين إذا أغفلوا أمر هذه الجمعية المركزية ذات الفروع ، إذْ قال : احذروا أن تكونوا متفرّقين كالأمم السابقة التى بينت لها السبيل ومهدت لها الطرق فتفرّقوا طرائق ، وكل حزب بما لديهم فرحون ، لأنهم تفرّقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم الآيات البينات الواضحات .

ولقد أبنت لكم يا معشر المسلمين كيف تكونوا متحدين ، وعلّمتكم طرق الاتحاد وعدم التفرّق ، فاذا خالفتم وغفلتم بعد هذا البيان كنتم كأولئك الذين عرفوا الطرق فتركوها فتفرّقوا ، فكان لهم من ذلك عذاب عظيم فى الدّنيا بالذّلّة وفى الآخرة بجهنم ؛ أما من ساروا على طريق الاتحاد فأولئك هم الفائزون .

فصل

فى أن الكعبة المشرّفة أيام الحجّ دار ندوة

وعلى هاتين الطائفتين المُصلحتين فى الإسلام ، المرسلتين من الجمعية الكبرى التى أشار الله لها فى كتابه العزيز أن يجتمعوا كل سنة عند البيت الحرام بمكة شرّفها الله ، فان للحجّ أكبر نصيب فى هداية المسلمين النازحين إليه من أطراف البلاد ؛ ولقد علم الله

قبل أن يخلق الإسلام والمسلمين حاجتهم إلى بيت يحجونه ويكون مثابة لهم : أى مرجعا وأمنا فقال (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً . وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى) وقال (جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِياماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ ذلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّمَوَاتِ وَما فِي الأَرْضِ وأَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) فانظروا كيف ختم الآية بقوله (ذلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّمَوَاتِ وَما فِي الأَرْضِ) وقد زاد على ذلك فقال :(وأَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) فتأملوا كيف جعل أن علمنا بأن الكعبة قيام للناس يورثنا علم أنه يعلم ما فى السموات وما فى الأرض بل يعلم كل شىء ، ذلك لأن الأمر اتضح فى هذه الأيام أن المسلمين ينتفعون سياسيا برجوعهم إلى هذا المكان ، وجعله دار ندوة كل عام يتشاوَرُون فيه ويتباحثون ، وهم فى مأمن فى ذلك الوادى السحيق فضلا عن فريضة الحجّ ، إن ذلك أمر لم يكن فى علم أحد من الناس بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

ومن ذَا الذى يعلم الغيب إذْ ذَاك فيقول إن الكعبة ستكون مرجعا للمسلمين يعرف بعضهم بعضا ويقضون فى الأمور السياسية العامّة ويتعارفون ويتحدون ويكون من وراء ذلك سُؤْددهم وعزّهم ومجدهم وخروجهم من تحت نير ذُلّ العبودية ؛ لاجرم أن الذى عرف ذلك هو الله الذى فرض الحجّ ورسم البيت ، وعرف مستقبل المسلمين وما يئول إليه أمرهم ، فهو يعلم ما فى السموات وما فى الأرض الخ ، إلا أن لكلّ شىء سببا ، فلا يكون الحَبّ بلا زرع

ولا الثمر بلا شجر . ولا النيل بلا مطر . ولا الرىّ بدون سقى . هكذا لن يكون اتحاد المسلمين . إلا بالطرق التى رسمناها والبيّنات التى أوضحناها . والله هو الولىّ الحميد .

هذا ولما فرغت من الكلام على اتحاد المسلمين وطرقه . آن لى أن أبسط الكلام على كيفية نشر العلم بينهم ، فأقول :

فصل

فى طرق نشر العلم والصناعات بين المسلمين

لما وصلت إلى هذا المكان حضر لى صديق من رجال القضاء هو الفاضل السيد محمود طلعت المسلمى ، فاطلع على ما كتبته إلى هنا ، فقال : يظهر لى أنك تريد نشر هذا الكتاب فى أنحاء الكرة الأرضية بين المسلمين ؟ فقلت نعم . فقال : ما معنى قولك إنك تريد نشر العلم بين المسلمين ، هل هم جهلاء بدينهم ؟ قلت له : كلا فالدين والحمد لله على ما أعلم منتشر والنّاس به عارفون ، العلماء قاموا فى كل صقع من الأصقاع الإسلامية بنشر الدين وإقام الصلاة والصيام والحجّ ؛ ولقد دوّن العلماء كتبا ونشروا مذاهب بين أيدى النّاس ، وإنما أُريد أن أبين للمسلمين ما أغفلوه مما يطلبه الدين ، فقال : وهل يطلب الدين شيئا وراء ما نعرفه ؟ فقلت نعم ، قال : وما هو ؟ قلت : أن يعرفوا ما ذَرَأَ اللهُ فى السموات والأرض من النجوم الباهرة والأنهار الجارية والأشجار والزُّرُوع الناضرة والمعادن الخافية ، وأن يكونوا أمّة وسطا كما قال تعالى (وكَذَلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطا لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلى

لنَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) وقد قال العلماء : أمَّة وسطا : أى عدولا . فجعل المسلمين شهودا عدولا ليشهدوا على النَّاس . وكيف يشهدون على النَّاس وهم يجهلون علومهم ولا يدركون كُنْهَهُم . والشاهد يكون خبيرا بالمشهود عليه ؛ وهكذا هذه الأمة وسط فى المعمورة . ألم تر أنهم يتخللون الأمم كلها ؛ فهم بين أوروبا المُسلَّحة والصين العظيمة . وسيكون فى المستقبل بيدهم مفاتيح السَّلام بين الشرق الأقصى وأوروبا فيكونون شهودا على ما يعمل الظالمون . ولهم الكلمة الفاصلة يوم ترتقى الأمم . فقال الأستاذ المسلمى : هذا لايقنعنى . فقلت : قال الله تعالى (إنَّ فى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى البَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ ماءٍ فأحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَبَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ وَالسَّحابِ المُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) أليس فى هذه الآية وصف العاقلين بأنهم هم الذين ينظرون ويعقلون خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك فى البحر بالتجارة ويعرفون عجائب المطر وإخراج النبات به وخلق الدَّوَابِّ وعجائبها ، ويعرفون كيف تجرى الرِّياح ، وأقسام الرِّياح ، وكيف تجتمع السحب ، وكيف تمطر وما أثر الشمس فى ذلك . وما تأثير المطر على الأرض . إن الله جعل الذين يعرفون هذه الأشياء ويتفكَّرُون عاقلين . وقد ورد فى حديث قال عليه الصلاة والسلام « لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَىَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأها وَلَمْ يَتَدَبَّرْها . وَيْلٌ لَهُ . وَيْلٌ لَهُ »

وهى قوله تعالى (إنَّ فى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولى الألْبابِ) وفى هذه الآيات دليل على طلب علم الفلك ومعرفة النجوم والكواكب ، ثم المطر والهواء والسحب والأنهار وعلم المعدن وجميع علوم الطبيعة والصناعة ؛ ألم تر أن السفن المذكورة فى الآية تحتاج إلى الحديد والفحم والكهرباء ، والكهرباء يحوزها النحاس عند التفاعل الذى به يكون القطب الموجب والسالب ، والسفينة لابدَّ لها من بضاعة تحملها وذلك علم التجارة .

وبالجملة فالآية تشير إلى سائر العلوم ، فقال : إذا أشارت الآية إلى العلوم فليس معنى هذا إلا طلب معرفتها .

فصل

فى طلب علم الفلك

فقلت : قال الله تعالى (إنَّا زَيَّنَا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الكَوَاكِبِ) وقال (قُلِ انْظُرُوا ماذَا فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ) وقال (وَلَقَدْ جَعَلْنا فِى السَّماءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَاها لِلنَّاظِرِينَ) وهل يليق أن يزين الملك قصره ولا يجد فى رعيته من يعقل له معنى ؟ وقال (هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَالقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالحِسابَ ما خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إلاَّ بالحَقِّ يُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . إنَّ فِى اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَما خَلَقَ اللهُ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ) فقوله وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب تنويه بأن هذا من العلوم المطلوبة الواجبة وجوبا كفائيا ، فهو يقول : نظمت

الشمس والقمر وجعلتهما فى منازل معلومة لتعلموا عدد السنين والحساب . ولا ريب أن علم الفلك لن يعرف إلا إذا تقدمه علم الحساب والجبر والهندسة . ولذلك قال : عدد السنين والحساب ؛ ولما كان الأمر فيه الدقة العجيبة قال (ما خَلَقَ اللهُ ذلكَ إلاَّ بالحَقِّ) وأكد ذلك بقوله (يُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) لاحبًّا فى علماء هذا الفنّ . وإنما فصله لهم لأنهم هم الذين يعقلون وزاد الأمر وضوحا بقوله (إنَّ فى اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَما خَلَقَ اللهُ فِي السَّمَوَاتِ والأرْضِ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ) . وعندى أن أعجب العجائب علم الفلك . فعار على المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها أن يجهلوا هذا العلم بعد أن زين الله لهم السماء وأبان النجوم وأجملها وأبهجها .

قال الفاضل محمود افندى : وما الذى تريد أن يعرفه المسلمون من علم النجوم ؟ فقلت : يعرفون النجوم الظاهرة والخافية . والكواكب الثابتة وعجائبها ، ويعرفون تقويم الكواكب السبعة وهى : الشمس وزحل والمشترى والمريخ والزهرة وعطارد والقمر ، ويعرفون فوق ذلك بِنْتُون وأورانوس . فقال : وما فائدتها فى هذه الحياة الاقتصادية ؟ فقلت أنت تعلم أن فائدتها كثيرة ، منها أن السير فى البحار العظيمة كالمحيط الإطلانطيقى وهو بحر الظلمات وبحر الهند وبحر الصين والمحيط الأعظم لن يتيسر للملاح تسيير سفينته فيها إلا إذا عرف رصد الكواكب والدرجة التى هو فيها . ولقد عرف ذلك الأوروبيون . فأقامت انكلترا وفرنسا وألمانيا

وأمثالها دواوين تسمى دواوين الكواكب السيارة رسموا فيها منازلها ورصدوا حسابها . وذلك لسير سفنهم فى البحر .

أما المسلمون اليوم فلا مرصد لهم ولا حساب ولا علم . ودينهم يطلبه فى أوقات الصلوات وفى هلال رمضان فضلا عن سير السفن فى البحار . قال تعالى (وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) فالقرآن نصّ على أن النجوم للهداية فى البرّ وهو معلوم . وفى البحر ولن يكون على الوجه الأكمل فى هذا الزمان إلا إذا رصدت الكواكب بطرق علمية كالدول العظيمة المعاصرة لنا . قال محمود : نرمز له م وأنا ط .

(م) هل تريد أن جميع المسلمين يقرءون هذا العلم .

(ط) كلا ، فهذا العلم فرض كفاية ، لابد فى كل بلد من بلاد الإسلام من طائفة تقوم به لأمور الدُّنيا والدّين ، فقال : وهل قال العلماء ذلك ؟ فقلت نعم أجمع علماء الإسلام أن العلوم جميعها والصناعات فرض كفاية ، أعنى أن جماعة يقومون بها على الوجه الأكمل فى الأمّة الإسلامية بحيث لايحتاجون إلى غيرهم فى علم أو صناعة ، فالعلوم فرض كفاية كالفلك والصناعة والتجارة والزراعة وتربية المماشية وسبك المعادن واستخراجها وما أشبه ذلك كالآلات الحربية المستحدثة . فحرام على المسلمين أن يكون فى الأرض علم وهم ناقصون فيه ، فعليهم صناعات المدافع والبارود والطيارات والقطر الجارية فوق الأرض . والمعادن واستخراجها من الأرض ، ومعرفة كل شىء حتى لايفوقهم فى الأرض أحد . أليس من العار أن يكون

٣٥٠ مليونا عالة على أوروبا ؟ أوَ ليس ذلك يوقع فى الوهم أن دينهم يقعد بهممهم . والدين كما رأيت يحضهم بل يأمرهم ؟ .

قال (م) إن المسلمين يقرءون هذه العلوم فى بعض مدارسهم كأهل الأستانة ونحوهم .

(ط) هذه قراءة سطحية قليلة . ونحن نريد بكتابنا هذا أن ينشر المؤلفون رسائل وكتبا مختصرات مشوّقات إلى العلوم فى سائر علوم الفلك والحيوان والنبات وعجائب الخلقة وبدائع الصنعة من الكهرباء والمغناطيس ممزوجات بالقرآن لتقبل الناس على هذه العلوم فرحين بأنها من مناهج دينهم . فتكثر قراءة تلك العلوم ؛ واعلم يا أستاذ محمود افندى . أن الإصلاح الدّينى أقرب إلى ترقية الأمّة من الإصلاح السياسى ؛ فاذا رأيت أمة نائمة ولها فى دينها طرائق للعلوم فأفهِمْهُم أن الدّين يأمرهم بالعلوم ، فيقبلون عليها أيما إقبال ، ويصعدون إلى أوج الفلاح فى سنين قليلة وهم مجدّون فى علمهم فرحون بدينهم . وأنا رأيت هذه خير وسيلة لترقية المسلمين سريعا . فان قصّر المسلمون والعلماء والمفكّرون فيما أشرنا إليه طال الأمد وقصرت الأيدى عن العمل . والله الهادى إلى سواء الصراط .

(م) أراك تذكر أن علماء الإسلام عليهم أن ينشروا رسائل للشعوب الإسلامية ، فهل تبين لنا نموذجا مما ذكرت حتى نرى ما هى الطرق التى ينشر بها المسلمون العلوم والأعمال ؟ .

(ط) الطرق إمّا عامّة . وإمّا خاصّة . والمراد بالعامة ما لا يخص علما ولا صناعة ؛ والمراد بالخاصة ما يخصّ علما أو صناعة .

(م) أرنى ما الطرق العامّة للتشويق إلى العلوم فلكيّة أو غيرها والصناعات عامّة .

فصل

فى الطرق العامّة لتشويق المسلمين للعلوم

(ط) قال تعالى (وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِى السَّمَوَاتِ وَما فى الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ) فهل سخر الله ما فى السموات والأرض للفرنج؟ أو ليس المسلمون هم المخاطبون بهذا فكيف ساغ للمسلمين أن يفرّوا من المنافع العامّة فى السموات والأرض من الفلك وعلم الحساب والكهرباء والمغناطيس والنبات والحيوان والإنسان والسياسة ، وكيف جاز لهم التنحى عن هذا الكون الذى خلقه الله للناس وقالوا نحن لاشأن لنا به . وقال تعالى (مَنْ كانَ يُرِيدُ العاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاها مَذْمُوماً مَدْحُوراً . وَمَنْ أَرادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَها سَعْيَها وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً . كُلاًّ نُمِدُّ هؤُلاءِ وَهؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً) فهنا جعل الناس فريقين فريقا أراد الآخرة ، وفريقا أراد العاجلة ، ثم سوّى بينهما فى الانتفاع بخيرات الدنيا فقال تعالى (كُلاًّ نُمِدُّ هؤُلاءِ وَهؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً) أى ممنوعا ، جعل الله تعالى خيرات الدنيا عامّة بين طلاب العاجلة وطلاب الآجلة ، ولم يحرم سبحانه وتعالى طلاب الآخرة من متاع الدنيا ، وأكد ذلك فقال تعالى (وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً) فليس ممنوعا منه كافر ولا مؤمن ولا حيوان يمشى ولا طائر يطير ، فكيف ساغ للمسلمين أن يذروا نعم الله

تعالى والصناعات والعلوم فيفوز بها غير المسلم والمسلم نائم . وإذاً لم يحظر الله عطاءه بل جعله شاملا عاما ؛ فأى عذر للمسلم إذا غفل عن العلوم والصناعات ؛ وهو الأولى أن يكون أعلم البرية وأعظم أهل الكرة الأرضية .

فصل

فى تفسير قوله تعالى (اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ) إلى آخر الآية

قال تعالى (اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) .

عَبَّر الله تعالى بكاف الخطاب ستّ مرّات ، فجعل الماء لنا والثمرات لنا وتسخير الفلك لنا وتسخير الأنهار لنا وتسخير الشمس والقمر لنا وتسخير الليل والنهار لنا ، وقد آتانا من كلّ ما سألناه فى ضمائرنا وما تمنته نفوسنا ، فهل هذا الخطاب استثنى منه المسلمون ؟ فهل جعل الله الثمرات فى الأرض خاصّة بغير المسلمين ، أم الخطاب عام ؟ وهل الفلك التى تجرى فى البحر ما بين آسيا وأفريقيا وأوروبا فى المحيط الهندى والهادى والبحر الأحمر وبحر الظلمات بين أوروبا وأمريكا ، هل هذه السفن خاصّة بالإفرنج ؟ وكيف نام المسلمون

عن علوم التجارة فأصبحت بأيدى غيرهم من الفرنجة وأهل أمريكا وهم صفر اليدين ؛ فالسفن التى تمخر عباب الأنهار والبحار فى سائر أنحاء كرتنا الأرضية بيد الفرنجة . وهم هم الذين يدرسون علوم المعادن والكهرباء والبخار و (التلغراف) البرق الذى له سلك والبرق الذى بلا سلك . أليس من العار عليكم أيها المسلمون أن تكونوا ٣٥٠ مليونا ولا سفن لكم فى البحار كما لغيركم ؟ وقد خاطبكم الله تعالى فقال (وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ) على قواعد علمية بعد معرفة صناعة الحديد لبنائها . والخشب لتكميلها والبخار لتسييرها . والكهرباء والمغناطيس لمعرفة الأخبار فيها . وقراءة علم الفلك والكواكب السيارة والثابتة للاهتداء بها فى طرق البحار ودرس علوم البحار وطرقها ومناطقها وما فيها من مسالك حتى لاتضل السفن سواء السبيل فتغرق ويهلك ما فيها . وبعد دراسة علوم السحب والرياح والعواصف حتى يلبس الربان لكل حال لبوسها . وينهج النهج الذى ينجى السفينة . ثم قال (وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ) ولا جرم أن الأنهار تسقى الزرع . ولها فى جريها قوة تستخرج منها الكهرباء فتغنى عن الفحم والبترول . والمسلمون فى بقاع الأرض غافلون عن أنهارهم وتكاد تصبح بيد غيرهم . وقوله (وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) والليل والشمس والقمر لها حساب دقيق لايهتدى إليه إلا بعلم الحساب والهندسة والجبر ثم الفلك ؛ فلا تطلع الشمس ولا تغرب ، ولا يشرق النجم ولا يغرب ، ولا يطلع سيار ولا يأفل إلا بمواعيد موقوتة لاتخس ثانية ، بل كل ذلك بمقدار . ولو ترك البشر ذلك يوما واحدا لاختل أمر حياتهم ؛ فهاهى ذه

سفن البحار وقطرات اليابسة كلها تسير بحساب الشمس والكواكب ، ولو أغفل الناس ذلك بعض يوم لاختلت مواعيدهم ولتصادمت قطراتهم ولمات كثير منهم . يعرف ذلك كل من اطلع على طرف من علم الفلك فى هذه الأيام . وقال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ) وقال تعالى (هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ) فكيف يقول الله تعالى : خلق لكم ما فى الأرض جميعا ، ويقول : الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء ثم ينام المسلمون أجمعون عما فى الأرض من عجائب الحيوان والنبات والمعادن والسفن والبحار والأنهار ؛ ومن العجب أن يذكر الأرض والسماء معا كأنه يقول : إن حياتكم متوقفة على دراستهما ، ويقول : إن الأرض فراش لكم ؛ ولا جرم أن للإنسان أن يتصرف فى فراشه كما يشاء ، وقال تعالى (هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ) فانظروا كيف جعل الأرض مذللة لنا سهلة لاتعصى أمرنا .

فتبسم إذ ذاك محمود افندى طلعت المسلمى وقال : سبحان الله لم أسمع قط آية يتحدث بها الناس فى مجالسهم لطلب الرزق إلا هذه الآية . أما اليوم فقد سمعت من الآيات ما لو عرفه عامة المسلمين لسارعوا فى استنتاج ما فى الأرض من منافع وفاقوا الأمم أجمعين .

(ط) اعلم أن الآيات الدالة على ذلك لاتقل عن سبعمائة وخمسين آية . وآيات الأحكام الشرعية لاتزيد عن ١٥٠ آية . فانظر كيف قلبت الأبصار وحارت الأذهان وغفل الناس (إنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ . وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ) ثم قلت وقال تعالى (وأَنْزَلْنَا الحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ) الحديد من المنافع التى لاتتعالى عن الإبرة ولا تتنزّل عن المدفع ، فهى فى سائر الصناعات . وثمّ النحاس والقصدير والذهب والرصاص والزنك والفضة وغيرها ، وكذا الأحجار الكريمة كل ذلك من النعم التى تركها المسلمون واستبدّ بها الفرنجة ، المعادن تحت الجبال أنزلها الله فى الأرض يوم كانت على حالة لينة ، وكانت تلك المعادن تنزل سائلة ، فأخذت تعلو وترسب ثم لما تشققت الأرض بعد يبسها نزلت تلك المعادن بهيئة مطر فملأ تلك الشقوق التى صارت الآن داخل الجبال ، هكذا قال علماء طبقات الأرض ، يقول الله تعالى فى هذه الآية (فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ) فهل خصّ الإفرنجة بهذه المنافع ؟ أفلا ينبغى للمسلمين أن يثقبوا الجبال فيستخرجوا الذهب والفضة والحديد والنحاس وغيرها من الجبال كجبال مصر فى الصعيد ، فان فى باطنها ذهبا يستخرجه الإفرنجة ، وهل الجبال التى يملكها المسلمون تبقى معطلة لايستخرج ذهبها ولا حديدها ولا فضتها ، أم الله الذى خلقها إذا قَصَّر المسلمون يبعث لهم أُمَّة تقهرهم فتستخرج ذهبهم وفضتهم ؟ هذا هو الحقّ الصراح ،

الذى يوافق حكمة الحكيم . كما قال تعالى (إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ) .

ومن رعى غنما فى أرض مسبعة ونام عنها تولى رعيها الأسد

هنا قال (م) لقد اكتفيت إلى هنا بما قرأت من الآيات فى العلوم والصناعات العامّة . وأرى أن علماء الإسلام لو نهجوا هذا المنهج فى رسائلهم وكتبهم لعشق المسلمون العلوم عشقا عظيما . ولأدّى ذلك إلى رقيهم رقيا كبيرا . فهات طرق التشويق للعلوم والصناعات الخاصة وابدأ بالسحاب والماء .

فصل

فى وصف السّحاب وعجائبه

أما السّحاب فلا حاجة إلى الإطالة فى وصفه ، ولكنا نجىء بوصف وجيز . ثم نقرأ الآية فنقول : إذا أرسلت الشمس حرارتها على الأرض والبحار صار الماء بخارا ، فارتفع إلى الطبقة الباردة فتكوّن ماءً ، ويصير قطعا صغيرة تتضامّ وتصير قطعا كبيرة وأكبر منها . حتى تصير سحابة تمطر على الأرض كالقدر على النار صار ماؤها بخارا فارتفع إلى الغطاء ثم انقلب راجعا إلى قطرات ، فالشمس كالنار والبحر كالقدر ؛ والطبقة الباردة فى الجوّ أشبه شىء بغطاء القدر والقطرات الراجعات أشبه شىء بالمطر . وذلك قوله تعالى (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ

أنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ . فانْظُرْ إلى آثارِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إنَّ ذلكَ لَمُحْيِي المَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) وقال تعالى (أَلَمْ تَرَ أنَّ اللهَ أنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَتُصْبِحُ الأرْضُ مُخْضَرَّةً إنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ) وقال تعالى (هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ البَرْقَ خَوْفا وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ . وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشاءُ) فهذه الآيات يا عزيزى محمود ذات وجهين اثنين : أوّلا أنها دالة على وحدانية الله وجماله وقدرته وحكمته ورحمته . وأنه يحيى الناس بعد الموت . ثانيا أنها داعية إلى البحث والتنقيب عن هذه البدائع والعجائب لنستفيد منها فى الحياة الدنيا .

ولقد أبدع الإمام الغزالى فى ذلك فقال : إن سورة الفاتحة التى يتلوها المسلمون فى صلواتهم أوّلها (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . الحَمْدُ للهِ رَبِّ العالَمِينَ . الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) فهى نصف تربية الله تعالى للعالم الإنسانى والحيوانى والنباتى ، وتبين رحمته لهم جميعا ، وهذا هو علم الكائنات فى الأرض والسّموات ، وهو المقصود الأعظم لمعرفة الله تعالى وللحياة الدنيا والترقى فيها (إيَّاكَ نَعْبُدُ) يرجع إلى علم العبادة ، فالفاتحة قدم فيها العلم بهذه المخلوقات على العبادة .

وأنا أؤيد كلام الغزالى ، فانى أقرأ فى القرآن (إنَّ اللهَ فالِقُ الحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ) وأقرأ (أنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالَتْ أوْدِيَةٌ بِقَدَرِها) وكثيرا من الآيات بها وصف

المخلوقات . ولكنى أقرأ فى الأحكام الشرعية (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ) وأقرأ (ويَسأَلُونَكَ عَنِ اليَتامَى قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ) فكأنّ الأحكام الشرعية قد يجاب بها سؤال سائل . أما آيات العجائب فانه يقصها علينا بلا سؤال لشدّة العناية بها وهذا من العجب العجاب . ولذلك لما جهل المسلمون ما علمهم ربهم صاروا أذلّ الأمم وإن كانوا علماء بالفقه والشريعة (لِلّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ) فعسى الله أن يأتى بالفتح بعد اليوم . وأن يجعل كتابنا هذا من البركات النافعات والقبسات المباركات . وأن يهدى به قلوبا ويفتح عيونا ويسمع آذانا ويلهم أناسا قد اصطفاهم لذلك . حتى يتموا ما بدأنا ، ويشرحوا ما أملينا ، ويتداركوا ما أغفلنا ، ويبتدئوا حيث انتهينا ، و (لَهُ الحَمْدُ فِي الأُولى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) .

قال محمود افندى طلعت : فاذكر لى نموذجا من الكلام على النبات بحيث يسهل على المتوسطين فهمه ، ويلذّ للذين قرءوا علم النبات فى المدارس حتى يفرح بقولك العامّة لدينهم والخاصّة لعلمهم وإنى لأرى هذا المقام حرجا ، وإنى أخاف أنك لايتسنى لك التوسط فى هذا المقام بين الخواصّ والعوامّ ، فقلت :

فصل

فى علم النبات

اعلم أن علم النبات واسع النطاق ، طويل المدى لايحصيه أحد ، ولا يعرفه حقّ معرفته إلا من يتفرّغ له طول حياته . ولكنى أقول

كلاما موجزا يعمّ النبات كله : إن النبات فصائل كثيرة : منه الشجر : كالنّخل والزّيتون والرّمان . ومنه الزرع : كالقمح والشّعير والذرة . والفصائل تختلف من بعضها باختلاف أعضاء التذكير والتأنيث فيها . فلكل نبات ذُكور وإناث . فاذا رأيت شجرة الذرة فان الذكور هى تلك المجموعة المكوّنة فى أعلى العود التى فيها مادّة ناعمة تنزل منها إلى (المطر) الكوز الذى فيه الحبّ المنظّم بنظام بديع كنظام الجواهر : والطّلع الذى فى الأعلى كالدّقيق ينزل على تلك الخيوط الحمر والبيض المتصلة بذلك الحبّ . فكل حبة بها خيط من تلك الخيوط . وذلك الخيط مثقوب من وسطه بثقب لا يرى فينزل فيه ذلك الدّقيق الذى يقوم مقام طلع النّخل . ثم ينزل إلى المطر فتتولد الحبة . فالذكر ما فى أعلى العود . والأنثى أسفل ذلك الخيط . والمتولد بينهما الحبة . فلكل حبة أب وأم . هكذا القمح ، فإن كل حبة لها أغشية عليها . وتلك الأغشية منتهية بالسفا ، وهذا السفا فيه أنابيب لاترى إلا بالمنظار . فيها طلع ينزل إلى وسط تلك الأغشية فتكوّن الحبة . فالذكر أعلى والأنثى بين الأغشية ، والحبة هى الناتج من الذكر والأنثى ، وتجد القرع فيه زهرات ذُكور وزهرات إناث قد رأيناها ألقحت أمامنا فأثمرت سريعا ، هكذا سائر الزرع والشجر .

والأزهار إما أن تكون جميلة كالورد والرمان والبرتقال والمشمش ، وإما أن تكون غير جميلة كالصفصاف والعبل وهو الأثل .

فما لاجمال فيه من الأزهار إنما تلقحه الرّياح بهبوبها فتهبّ حاملة لقح الذكر وتمرّ به على الأنثى ، ولا جرم أن مثل هذا الشجر لن يكون زهره جميلا ، فالجمال الذى لافائدة له فى الطبيعة معدوم .

فان الرياح ليست ترى الجمال فتعشقه ولكنها تنقل الطلع . ولا علم لها به . وهذا أوضحته فى كتاب الزهرة : وأما الشجر الذى جمل زهره فالرياح ليست كافية فيه . بل سخر الله الحشرات كالنحل فتطير من شجرة إلى شجرة وقد حملت على أجنحتها طلع الذكر ووضعته فى الأنثى وهى غير عالمة بما حملت . وإنما جمال الزهرة بهرها . فأتت مسرعة لتشرب العسل الذى فى أسفل الزهرات فتطير به إلى زهرة أخرى . وقد حمل جسمها من طلع زهرة الذكور فوضعته فى الزهرة الأنثى . وهى إنما تشرب العسل الذى فى أسفل الزهرة سائرة إليها عاشقة لجمالها فرحة بنضرتها شاربة من عسلها . فكان الجمال فى القطن والورد والبرتقال لحكمة بديعة وهى خدمة الحشرات وخدمة النبات . فتبارك الله أحسن الخالقين . وهذا قوله تعالى (وأرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ) وقال تعالى (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) وقوله تعالى (وأنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ . تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ) وقال تعالى (وأنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ) وقال تعالى (وجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ . وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ) وقال تعالى (وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الأرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إنَّ فِي ذلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . وَفِي الأرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ

وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) فالرّواسى هى الجبال . ومن الجبال تخرج الأنهار . لأن المطر يكون فوقها ثلجا . وفى باطنها ماء مخزونا . فتفجّر الأنهار منه وتجرى على اليابسة . وهكذا الثلج فى قمم الجبال ينزل بالحاح الشمس عليه فتجرى فى باطن الجبل . ثم تخرج من العيون فى البطاح . فيكون الأنهار . وهذا شأن النيل ودجلة والفرات وغيرها من الأنهار . فذكر الأنهار عقب الرّواسى لهذه النكتة حتى أن أهل بلادنا المصريين اليوم هالهم أمر النيل من منبعه لما توهموا أن الفرنجة ربما حوّلوا ماءه إلى أرض فى السودان فخافوا العاقبة ، فمعرفة الحقائق نافعة فى كلّ شىء ؛ وذكر الثمرات وأردفها بالليل والنهار اللذين يؤثر الضوء فيهما على الفاكهة والثمرات والحشائش وكل شىء ، ثم ذكر ما فى الأرض من قطع متجاورات ، فهذه طينية وهذه رملية وهذه طفلية وهذه سبخة وهذه حجرية وهذه طبشيرية وهذه ماؤها المعين عذب ، وهذه معينها ملح وهذه معينها نوشادرىّ ، وهذه كبريتىّ وهذه جيرىّ ، وهكذا مما لايحصى . ثم ذكر الجنات من الأعناب والزروع والنخيل وأنها كلها تسقى بماء واحد فى أرض واحدة وهواء واحد ، ثم يفضل بعضها على بعض فى الطعم واللون والرائحة والتغذية والوزن والشكل ، فتبارك الله أحسن الخالقين . وقال تعالى (وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ) كالعنب (وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ) كالتّين والزيتون (وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ) وقال تعالى (انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ)

أى نضجه (إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) إلى هنا قال الفاضل محمود افندى ربما طال الكلام فى هذا المقام فاذكر لنا قولا فى البحار . فقلت :

فصل
فى البحار

قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) فذكر اللحم الطرىّ وهو السمك المستخرج من البحر ، وذكر عجائب الجمال ، وبدائع الصنعة ، من الدرّ المخلوق فى صدفه ، العائش فى البحار ، وكذا المرجان الذى ينبت فى قاع البحر ، ولعمرك لاينال مغنمه ولا يحظى بمكسبه إلا الفرنجة . ألا ترى إلى فرنسا فانها تحصد حقول المرجان التى أمام تونس والجزائر وهى حافظة لها ، ومتى تمّ ينعها حصدتها وباعتها والمسلمون نائمون لايعلمون شيئا ، أولئك هم النائمون ؛ يقول الله تعالى (وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا) والمسلمون كأنهم لم يقرءوا القرآن ، وكأنهم لم يخلقوا فى هذه الأرض ، وكأنهم أموات لاأحياء ، يقول الله تعالى لهم : وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وتتحلى بها نساؤكم . وهم يقولون : يا ربنا نحن لانستخرج وإنما نشترى من المستخرجين من الأرض ، فكأنهم ليسوا مخاطبين بالاستخراج المباح . فحرّموا على أنفسهم ما أباحه الله لهم بل أوجبه عليهم باعتبار أنه فرض كفاية ولا كفاية

لدينا ولا علم ولا عمل ولا حياة : اللهم أنقذ أمتنا من هذا النوم العميق . وأيقظهم إنك أنت السميع العليم . واجعل كتابى هذا نورا يستضىء به المتقون ونبراسا يهتدى به الصالحون ، إنك عليم قدير . قال محمود افندى طلعت : كفى ما ذكرت فى البحار ، فما تقول فى علم الحشرات ؟ قلت :

فصل

فى الحشرات

قال الله تعالى (وأوْحَى رَبُّكَ إلى النَّحْلِ أنِ اتَّخِذِى مِنَ الجِبالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ . ثُمَّ كُلِى مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فاسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِها شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ . إنَّ فِى ذلكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُون) فانظر كيف جعل النحل تبنى من الجبال بيوتا وفى الشجر وفى الخلايا التى يصنعها الناس لها ، وتجمع العسل من الزهر مما ذكرنا فى هذا الكتاب وأوضحناه فى كتاب الزهرة وكتبنا الأخرى ، ثم جعل هذا الشراب مختلف الألوان ، ويشفى به الأمراض ، عجب لهذه الدنيا ونظمها إنها جنة للعقلاء ؛ ليتفكّر المسلمون وليعقلوا كيف كانت النحلة الصغيرة التى لا قدر لها سببا فى إلقاح النبات ذكرانه لإناثه ، ثم هى جمعت من الأزهار ما لذّ وطاب فأحالته عسلا . وكان العسل ألذّ ما يأكل الناس وأشفى ما به يستشفون . فياليت شعرى كيف كان الزهر وعسله وإلقاح إناثه من ذكرانه ثم شفاء الناس بعسله ، إنى لفى عجب من

نظام هذا الوجود المحكم البديع . وكيف كانت النحلة وسطا بيننا وبين عسل الزهر . وكيف طبخته وكيف كان شفاءنا وهى لا علم لها بالإلقاح فى الأزهار ولا بالعسل الذى عنها ورثناه . ومن خلاها وبيوتها الجبلية اشتريناه إن فى ذلك لعبرة للمسلمين ؛ أما آن لهم أن ينظروا فى عجائب الدنيا وثمراتها وغرائبها وبدائعها . ويتفكروا فيعلموا أن ألذ الطعوم من حشرة صغيرة وهى النحلة . وأرق الملبوسات وأشفها وأجملها ما كان من دودة وهو الحرير ، وأحسنها وأبهجها ما كان من صدفة فى البحر وهو الدر ؛ فيا عجبا حشرة ودودة وصدفة كانت أعمالها محل إعجابنا وزينتنا وشفائنا وتفاخرنا بهذا العلم فليرق المسلمون . وبهذا العلم فليفيقوا من غفلتهم . فاذا أضاعوا هذه العلوم فقد أضاعوا كل شىء وجهلوا ربهم وصنعه ونسوا نعمته كما قال تعالى (نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ إنَّ المُنافِقِينَ هُمُ الفاسِقُونَ) نسوا نعمه فلم يدركوها فنسيهم وأخرهم فى مصاف الأمم .

العذاب واقع على ذوى العقول الكبيرة من المسلمين ، واقع على الأغنياء والأمراء والعقلاء والعلماء ؛ فعلى العالم أن يذكر الأغنياء وعلى الأغنياء أن يحضوا العلماء وإلا فانهم جميعا آثمون مذنبون .

ومن الحشرات النمل والعنكبوت ؛ فالنمل قد أفرد له العلماء فى عصرنا الحاضر التأليف ، ولقد رأوا له عجائب وذكروها وآيات بينوها وغرائب صنفوها ، فمن ذلك أن فيها ما يبنى مساكنه كما يبنى الناس . ويهيئن قرى صغيرة وكبيرة ويتعاونن . ولهن أظئار يربين أولادهن الصغار . ولهن حجرات محفورات لكل جيل من أجيال الذرية حجرة خاصة كأنها مدارس ذات فصول . ولهن من نظام

الجند وصفوف الحرب وتربية الماشية الخاصة بهن ما تحار له عقول العلماء سجدا . ويقولون : سبحان مبدعها الحكيم . ولا يظنّ القارئ أن فى ذكر الجند لهن مبالغة أو أن فى الحرب عجبا . فان لها من أنفسها نملا كبيرا يشاهدونه محافظا عليها فى غدوّها ورواحها . ثم هى تحارب نملا آخر وتأتى بالأسرى . وهؤلاء الأسرى يحضرون الطعام لساداتهن الآسرات لهن : ولهن حيوان صغير يسمى (افد) سماه علماء هذا الفنّ جاموس النمل فانه يربيه ويسمنه ويمتصّ منه مادّة يتغذّى بها كلبن البقر والجاموس عندنا . ورأوا له مزارع يحافظ عليها . وهى نباتات صغيرة لها نظام هندسى وطرق نملية عجيبة بديعة متقنة قد اطلعت على رسمها . ولها ملكة تقوم بأمرها وتحافظ على مجموعها . وإليها يولى النمل وجهه فى غدوّه ورواحه ، ويستروح لرؤيتها ، ويهشّ لإقبالها ، ويفرح لطاعتها . ويسعى لخدمة القرية النملية إرضاء لها (أَلا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ) وقد قصّ القرآن قصص النمل فقال (حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ . فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا) .

العنكبوت

ومن الحشرات العنكبوت ، ذات النسيج الجميل ، والغزل الرّقيق ، والرّيق الذى إذا تعرّض للهواء انقلب إلى مادة أشبه بالقطن أو الحرير فيغزلها خيطا دقيقا وينسج تلك الخيوط نسيجا محكما متقنا حتى قال علماء الحشرات : إن هندستها التى رسمتها فى نسيجها ونظامها

البديع الذى توخّته فى عملها أدقّ ما صنعه المهندسون . وأبرع ما نظّمه البارعون . حتى إنها لم تخطئ يوما فى نظمها . ولم تغلط يوما فى نسجها . وإن أبرع المهندسين وأعظم المحنكين الذين درسوا فى المدارس العالية وتخرّجوا على أعلم علماء الهندسة يخطئون فى تقديرهم ويشذّون فى عملهم . ويحيدون عن سواء السبيل . وهذه الحشرات لاتخطئ فى نظمها . ولا تضلّ فى هندستها . ولا تخيب فى إحكامها . ذلك لأن معلم المهندسين من المخلوقين . ومعلم العنكبوت خالق المهندسين . فتلميذ الله لن يخطئ . وتلميذ المخلوق قد يضلّ مع الضالين . ولقد شاهد الناس صغارها وصغار الحيوانات تخرج عالمة بفنونها . محكمة لعملها كأمهاتها بلا تعليم ولا تدريب ولا تهذيب ولا تدريس ولا مدارس ولا معلمين ، بل الغريزة الإلهية والحكمة الصمدانية التى أبدعت المخلوقات ونظمت الكائنات (فتباركَ اللهُ أحسنُ الخالقينَ) ولقد ذكر الله العنكبوت فقال (وإنّ أوْهنَ البُيُوتِ لَبَيْتُ العَنْكَبُوتِ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ) فاذا كان أوهن البيوت على نظام أتمّ وحكمة أبهج ، فما بالك بأمتنها بناء وأحسنها نظاما (وَما كُنَّا عَنِ الخَلْقِ غافِلِينَ) .

لطيفة

إن العلماء بحثوا فى تجزئة المادة . حتى وصلوا إلى ما يدهش العقول ويحير الأفكار . فقد رأوا بعض العناكب تنسج خيوطا رقيقة جدا . فانها تنسج بيتها من خيوط ، كل خيط منها مؤلف من أربعة خيوط أدقّ منه . وكلّ واحد من هذه الأربعة مؤلف من

ألف خيط . وكل واحد من الألف يخرج من قناة مخصوصة فى جسم العنكبوت .

فانظر كيف كان الخيط الواحد مؤلفا من ٤ فى ١٠٠٠ يساوى ٤٠٠٠ ومن عجب أن بعض علماء الألمان قال إنه إذا ضمّ أربعة بلايين خيط ٤٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ إلى بعضها لم تكن أغلظ من شعرة واحدة من شعر لحيته .

ولقد علمت أن كل خيط من تلك الخيوط مؤلف من أربعة آلاف خيط . فكل خيط إذن من هذه الخيوط الدّقيقة يساوى غلظه :

١

٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر١٦ واحدا من ستة عشر ترليونا ثم تعجب كيف كان كل واحد من الألف يخرج من قناة مخصوصة فى جسم العنكبوت . وكيف يسع جسم العنكبوت ألف ثقب فيها ألف خيط ؟ أليس ذلك من العجب ! أو ليس من أعجب الحكم أن العنكبوت فى هذا تمثل نظام العالم الجميل ، يخرج الخيط الدّقيق من ثقبه فيخيل للرائى أنه خرج بلا حكمة ، فاذا انضمت الخيوط إلى بعضها كوّنت خيطا ، والخيوط الأربعة أنتجت خيطا أكبر ، وباجتماع الخيوط أنشأت بيتا ، وكان مسكنا ومحلّ صيد للعنكبوت ومع ذلك تسمع القرآن يقول (وإنّ أوْهَنَ البُيُوتِ لَبَيْتُ العَنْكَبُوتِ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ) وصف بيت العنكبوت بأنه أوهن البيوت . ثم أردفه بقوله (لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ) فانظر كيف ذكر العلم المقرون بلو بعد مسألة العنكبوت . أفليس هذا الوهن قد ظهر فى التحليل والتجزئة . فقد جاوزت خيوط العنكبوت الحدّ المعروف فى الدقة وتناهت فى التجزئة ، فذكر الوهن هنا

إشارة إلى قبول التجزئة قبولا مطردا بحيث لايمتنع عنها وهو متماسك. ذلك هو السرّ فى قوله (لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ) فليس يدرك الناس تلك التجزئة التى أشار لها الوهن مجرّد إشارة إلا بعلم الطبيعة ، ولا يدرى المسلمون ما السرّ فى تسمية سورة باسم العنكبوت . إلا التفرّغ لدراسة الحشرات . وإذن يعرفون لماذا سميت سورة فى القرآن باسم العنكبوت وأخرى باسم النمل وأخرى باسم النحل . وهى حشرات . وسورة باسم البقرة . وسورة باسم الأنعام ، وهذه من ذوات الأربع . والذى أراه أن الجيل الحاضر ومن كانوا قبله من المسلمين فى الأعصر المتأخرة إنما خلقوا ليحفظوا القرآن والشريعة ، حتى يتفكّر فيهما الأجيال المقبلة ، التى سيوقظها أمثال هذا الكتاب ، ويخرج جيل إسلامى لم تحلم به العصور . ولم تلده سوالف الدهور ، وهم خلفاء الله تعالى والنبىّ صلى الله عليه وسلم ، وهذا سيكون ، وأنا به من المؤمنين اهـ .

وما مثل العنكبوت فى ذلك النظام البديع ، إلا كمثل النحل إذ نظّم بيوتا مسدسات ذات أضلاع متساوية متقنة . ومن العجب أن الأشكال المسدسة كل ضلع يساوى القطر المارّ ما بين ضلعين من أضلاعها كما قرّره علماء الهندسة ، ولقد أبنا الحكمة فى اختيار المسدس دون باقى الأشكال ولم يكن دائرة فيما كتبناه فى كتبنا السابقة وأوضحنا عجائب هذه الحشرات وغيرها إيضاحا أتمّ وبيانا أكمل فى كتابنا جمال العالم ، وكذا نظام العالم والأمم وغيرها . وهذا الكتاب إنما جعلناه تذكرة عامّة للأمة الإسلامية ليستيقظوا من غفلتهم ، وليفيقوا من سباتهم ، وليعلموا أن الله عزّ وجلّ ما وصف هذه الحشرات ، ولا ذكر هذه الآيات ، ولا أخذ يصف الأنهار والجبال

والكواكب والشمس والقمر والنجوم إلا ليسوقنا إليها . وليحثنا عليها . فانظر مسألة النمل الذى تقدم الكلام عليها فانها (فضلا عما فيها من بدائع الصنعة الإلهية . والحكمة الصمدانية) دالة على حكمة الخالق وإتقانه ونظامه وعجيب صنعه فان لها أثرا عظيما فى الزراعة . إن تربية النحل فى البساتين النضرة موجب للثروة بالعسل الكثير الذى يربو إذا كانت الخلايا فى وسط الأزهار . ويقلّ بل يموت النحل إذا كانت الأرض المحيطة به مقفرة . ولها فوق ذلك شروط وأحوال خاصة يعرفها الدّارسون لمستقرّها ومستودعها من علماء الزراعة الساهرين على مصالح الأمم . الناظرين فيما جادت به يد الخالق من العجائب والبدائع . ولما كانت هذه الحشرات الضعيفة ربما غفل الناس عن أمرها . وصغّروا من شأنها . وجهلوا صنعها . سمّى الله عزّ وجلّ سورا من القرآن باسمها . فسمى النمل والنحل والعنكبوت أفليس ذلك نبراسا يهتدى به المسلمون فيرقون صناعاتهم ويبنون مجدهم ويدرسون كل ما دبّ وكل ما طار وكل حيوان ونبات : إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار كما قرّرناه .

وهنا قال الفاضل محمود افندى طلعت : كفى ما ذكرته من الحشرات فاذكر شيئا عن الطيور وعن سائر الحيوان ذوات الأربع : فقلت فى وصف الحيوان العام :

فصل

فى وصف الحيوان

ولأسمعك كلاما كليا فى الحيوانات فأقول : اعلموا أيها المسلمون أن الله تعالى خلق لنا الأنعام والبهائم والسباع والوحوش والطيور

والجوارح وحيوان الماء والحشرات كل ذلك ليتمّ خلقه وتركيبه على أتمّ كمال وأحسن حال . فالأنعام : كل ماله ظلف مشقوق كالبقر والجاموس والغنم والمعز . والبهائم : ما كان لها حافر كالخيل والبغال . والسباع : ما لها أنياب ومخاليب . والوحوش : ما كان مركبا من ذلك . والطيور : ما كان لها أجنحة وريش ومنقار . والجوارح : ما كان لها أجنحة ومنقار مقوّس ومخاليب معقربة . وحيوان الماء : ما يقيم فيه ويعيش . والحشرات : ما يطير وليس له ريش . والدوامّ : ما يدبّ على رجلين وأربعة ، أو يزحف ، أو ينساب على بطنه أو يتدحرج على جنبه ؛ ولقد يعجب الناس من خلقة الفيل أكثر من خلقة البقة وهى أعجب خلقة وأظرف صورة ، فان الفيل مع كبر جسمه له أربعة أرجل وخرطوم وناباں خارجان . والبقة مع صغر جسمها لها ستة أرجل وخرطوم وأربعة أجنحة وذنب وفم وحلقوم وجوف ومصارين وأمعاء وأعضاء أخرى لايدركها البصر ولا يعرفها الفكر . وهى مع صغر جثتها مسلطة على الفيل بالأذية ولا يقدر عليها ولا يمتنع بالتحرس منها .

ثم إن من الحيوان ما له حاسة واحدة وهى اللمس كالأصداف وأجناس الديدان التى تعيش فى الطين أو فى الماء أو فى الخلّ أو فى الثلج أو فى لبّ الثمر أو فى الحبّ أو فى لبّ النبات والشجر أو فى أجواف الحيوانات الكبرى . وليس له ذوق ولا شمّ ولا سمع ولا بصر . وليس له إلا اللمس فيمتصّ المادّة بجميع بدنه بالقوّة الجاذبة ويحسّ باللمس لاغير . ومنها ماله ذوق ولمس وليس له سمع ولا بصر ولا شمّ ، وهى كل دودة تتكوّن وتدبّ على ورق الأشجار

والنبات ونورها وزهرها . ومنها ماله لمس وذوق وشمّ وليس له سمع ولا بصر . وهى الحيوانات التى تعيش فى قعر البحار والمياه والمواضع المظلمة . ومنها ماله الحواسّ ما عدا البصرَ . وهى الهوامّ والحشرات التى تدبّ فى المواضع المظلمة ولم يجعل له البصر لأنه يعيش فى المواضع المظلمة .

فصل

فى اختلاف الحيوان فى الحركات

من الحيوانات ما يتدحرج كدودة الثلج . ومنها ما يزحف كدودة الصدف . ومنها ما ينساب كالحية . ومنها ما يدبّ كالعقارب . ومنها ما يعدو كالفأر . ومنها ما يطير كالذباب والبقّ . ومما يدبّ ويمشى ماله رجلان . ومنها ماله أربعة أرجل . ومنها ماله ستّ أرجل . ومنها ماله أكثر . ومما يطير من الحشرات ما له جناحان . ومنها ما له أربعة أجنحة . ومنها ما له ست أرجل وأربعة أجنحة ومشفر ومخاليب وقرون كالجراد . ومنها ما له خرطوم كالبق والذباب . ومنها ماله مشفر وحُمَةٌ كالزّنابير . ومن الهوامّ والحشرات ما له فكر وروية وتمييز وتدبير وسياسة كما قدمنا ، وإلى هذا الاختلاف أشار الله تعالى فقال (وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دابَّةٍ مِنْ ماءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللهُ ما يَشاءُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

واعلم أن هذه الغرائب لايتعجب منها الناس لأنهم ألفوها ، أما العلماء فانفتحت أبصارهم وكشفت بصائرهم ، فرأوا هذه العجائب

فأعظموها وأيقنوا أنهم مبصرون والناس حولهم غافلون . فعليهم أن يفتحوا أبصار من حولهم . قال تعالى (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) فالعجائب تحيط بنا من كل جانب ، ونحن مغمضون الأعين عنها كأنما لم نخلق على هذه الكرة . وكأنّ غيرنا هم المختصُّون بنعم الله وعجائبه وبدائعه (أَلا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ - وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا - وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ) .

ومن الحشرات ما لها أعين . ومنها ما كلّ عين من عينيها مركبة من مائتى (٢٠٠) عين فيكون لها (٤٠٠) أربعمائة عين تبصر بها ، وكل عين مركبة من أعضاء وطبقات خاصة بها كما نقلناه عن علماء الألمان والنمساويين فى رسالتنا الموسومة بعين النملة . ومنها ما له أكثر من ذلك كالذباب . ومنها مالها (٢٧٫٠٠٠) سبع وعشرون ألف عين وهى حشرة كبيرة أكبر من أبى دقيق تعيش على العُلَّيْق وغيره ، وهذه العجائب البديعة الحسنة لاتعرف إلا بالعلوم التى عرفها العالم الغربى اليوم ، وعندهم مناظر معظمة تريك هذه العين والعيون التى تركبت منها كما رأيتها أنا بعينى رأسى تحت المنظار المعظَّم . هذه عجائب الحيوان الظاهرة ، وهناك عجائب باطنة أدقّ من هذه لايدركها إلا علماء التشريح الناظرون فى ملكوت السموات والأرض ، المبصرون المطلعون على خفايا البدائع وعجائب الحكمة ، إن ربك حكيم عليم .

ولقد رأى العلماء قديما وحديثا أن للعين سبع طبقات وثلاث رطوبات لانطيل بذكرها . وإحدى طبقاتها وهى الشبكية التى

لاتزيد على ثخن ورقة تتألف من تسع طبقات مختلفة . أبعدها تتألف من ثلاثة (ملايين) مخروط ونحو ثلاثين مليون أسطوانة . وقد رأوا فى المادة السنجابية التى فى الدماغ نحو ستمائة مليون خلية . تتألف كل منها من آلاف من الدقائق الظاهرة ، وكل دقيقة تتكون من ملايين الجواهر كما فى كتاب مسرات الحياة للدورد أفيرى . وذلك من مطالب قوله تعالى (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) وقوله (وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون) وقوله تعالى (الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين) وقوله تعالى (وكل شىء عنده بمقدار) وقوله تعالى (هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم) وقوله تعالى (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) .

يا عجبا لهذه الدنيا ونظامها ، ويا غفلة أكثر المسلمين .

عجبا لهذه البقية الإنسانية ، وكيف ركب الدماغ بأشكال منظمة بديعة ، وكيف جعل فى العين مادة تشبه الزجاج ، وأخرى تشبه بياض البيض ، وكيف كانت الطبقة المقدمة فيها المسماة بالقرنية : أعنى التى تشبه القرن نراها شفافة والنور يأتى من الكواكب والنيرات مارا بالهواء وهو شفاف وبالقرنية وهى شفافة وبالمواد الزجاجية والبيضية فى العين وهى شفافة ، ويرسم هناك على قطعة تسمى الجليدية ، وتسمى العدسية والبلورية أيضا فهى كالبلور . وتنتقل الصورة منها إلى المخ فيراها الإنسان والعين لاترى وإنما هى آلة الإبصار .

أيها المسلمون عليكم أن تتغلغلوا فى العلوم كما أمركم الله . وكيف

يقول (وفي انفسكم افلا تبصرون) ايها المسلمون هذا كلام ربكم . وهذا صنع ربكم . فأين المفرّ ولا مفرّ لهارب . فإما أن تعلموا . وإما أن تتأهبوا للرحيل من العالم . ولكن أبشركم قد جاء دوركم وأقبل يوم علمكم (وتلكَ الأيّامُ نُداوِلُها بينَ الناسِ) ولعمري لقد أقبلتم اليوم على العلوم إقبالا . وأنا بتمام أمركم من المؤمنين .

فصل

في قوله تعالى (وَانْظُرْ إلى حِمَارِكَ) ووجوب علم التشريح

أوَ ليس ما ذكرته في عين الإنسان من عجائب علم التشريح التي تدهش العقول . وكيف حثّ الله تعالى عليه في القرآن والمسلمون عنه نائمون . نعم قد يقرؤه الأطباء . وأما بقية الأُمّة فانها تجهله . يا أسفا على أمة الإسلام . الطبيب يقرأ علم التشريح ولا يعنيه إلا الأعمال الطبية وكثير منهم غافلون عن الحكمة والنظام والجمال .

التشريح من عجائب العلم ومن مطالب القرآن كيف لا ؟ انظروا أيها المسلمون . ألم يقل الله في قصة العزير إذ مرّ على بيت المقدس الذي هو مسقط رأسه بعد أن خرّبه بختنصر وأخذ يقول (أنى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا) أي كيف يحيي هذه القرية الله تعالى بعد خرابها ؟ (فأماتَهُ اللهُ مائةَ عامٍ) أي فأماته الله فلبث ميتا مائة عام (ثُمَّ بَعَثَهُ) أحياه (قالَ) له الملك (كَمْ لَبِثْتَ قالَ لَبِثْتُ يَوْماً أوْ بَعْضَ يَوْمٍ . قالَ) الملك له (بَلْ لَبِثْتَ مائةَ عامٍ فانْظُرْ إلى طَعامِكَ) هو التين (وَشَرَابِكَ) وهو العصير أو اللبن (لَمْ يَتَسَنَّهْ) لم يتغير (وانْظُرْ إلى حِمَارِكَ)

كيف تفرّقت عظامه (وَ) فعلنا ذلك (لِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ) أى عظام الحمار المفرّقة (كَيْفَ نُنْشِزُهَا) نحييها ونرفع بعضها إلى بعض (ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ) قدرة الله تعالى على هذه الأشياء وأنه حفظ الشراب والطعام وأحيا عظام الحمار فرفعها وركب بعضها على بعض وخلق عليها اللحم (قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) يا ليت شعري لم ذكر هذه القصة فى القرآن . أللنبىّ صلى الله عليه وسلم وحده ؟ كلا فهو صلى الله عليه وسلم مرسل لنا . أهى اليوم تقرأ لآبائنا الذين ماتوا ؟ كلا وإنما تقرأ لأجلنا الآن . فقصة العزير يقصد بها تعليمنا نحن . وإذا طلب من العزير أن ينظر فى عظام الحمار . فالنظر فى تشريح الإنسان أوْلى . بل هو أتمّ تركيبا من الحمار . وانظروا أيها المسلمون كيف يقول بعد أن عرّف التشريح : أعلم أن الله على كل شىء قدير : يعنى أنه أصبح عالما ، ولم يكتف بالإيمان ، فليفكر المسلمون فى هذا القول ، ولينظروا بطلب الخليل من الله تعالى قائلا (كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى) فيقول الله تعالى له (أَوَلَمْ تُؤْمِنْ) فيقول (بَلَى) أى آمنت (وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) فهنا يقول العزير : أعلم أن الله على كل شىء قدير . ويقول الخليل : ولكن ليطمئنّ قلبى ؛ فياقوم كيف يكون هذا فى القرآن والناس ساهون ؟ وكيف نجهل التشريح والكتاب يأمرنا به ؟ يظنّ كثير من الغافلين فى الأمة الإسلامية أنهم متى ظنوا أنهم عرفوا الله تعالى ولو تقليدا فقد أتموا كل شىء . ولكن الله يريد رقىّ عقولنا باتساع علومنا ومعارفنا . فلذلك أكثر من هذه القصص وقال لنا : إن الأنبياء

يدرسون كل شيء . ويقول لرسوله (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً) فكان المسلم الغافل بجهله يظنّ أنه أعلم من الأنبياء ومن نبينا ، يعيش غافلا ساهيا لاهيا . أوَ لم يعير الله تعالى اليهود بالغفلة عما فى التّوراة فقال تعالى (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً) أفلا يكون المسلم الذى يقرأ مثل هذه القصة فى القرآن يكررها بلا عمل ولا علم ولا حكمة ولا تشريح كالحمار يحمل أسفارا . المسلمون يكرّرون القرآن صباحا ومساء وهم لايفكرون إلا قليلا .

فصل

فى وصف فقرة واحدة من فقرات الظهر
لتعرف أيها الذكىّ جمال علم التشريح

(١) لقد جعل الله تعالى الظهر خرزات كثيرة . ولو كانت قطعة واحدة لم يمكن الانحناء بها .

(٢) ولو كانت قطعا أصغر من هذه لكان الانحناء أسهل . ولكن النخاع فى وسطها لايكون مصونا ، لذلك جعلت على هذا الوضع ليتمّ الأمران : إمكان الانحناء . وحفظ النخاع ليوصل الإحساس إلى المخّ .

وقد جعل على كل فقرة أربعة أشياء (١) غشاء غضروفى يغشيها وشوكة (٢) نابتة من خلفها وجناحان (٣) و (٤) من يمينها ويسارها أما الغشاء الغضروفى فلئلا تنكسر بسهولة عند مصادمتها ؛ وأما الشوكة من خلفها فلتكون وقاية بارزة لما تتلقّى الصدمات فلا تصل للفقرات . ويقال لهذه الشوكات سناسن جمع سنسنة ، وهذه السناسن

قد ربطت بعضها ببعض برباطات عصبية عراض متينة فتصير كأنها قطعة واحدة . فأما الأجنحة فانها مدخل لرءوس الأضلاع ووقاية للفقرات من جوانبها . كما أن السناسن وقاية لها من ورائها .

ولما كان الدماغ هو محلّ الإحساس والفكر . وكان لابدّ من ربط جميع أعضاء الجسم به . ولم يمكن أن تغرز جميع الأعصاب فيه . جعلت الفقرات مجوّفة وفيها النخاع المتصل بالمخّ لتتصل به الأعصاب الحساسة والأعصاب التى للحركة . فاذا أصاب الجسم حرّ أو برد أو ألم ظاهر وصّله عصب الحسّ إلى النخاع فاتصل بالمخّ . فيأمر الأعضاء الظاهرة بالدفاع بواسطة أعصاب الحركة فى أقلّ من لمح البصر . ومن الصلب من أعلاه إلى العصعص ٢٩ زوجا من أعصاب الحسّ ، وأعصاب الحركة عند كل خرزة زوجان : أحدهما يمنة ، والآخر يسرة ، فانظر كيف كان للفقرة الواحدة غشاء يحفظها وشوكة تحميها وجناحان يحفظانها من جانبيها وينفعان فى ربط الأضلاع . وكيف كان باطنها أشبه بالبطارية الكهربائية . ترسل الكهرباء من الأسلاك . وكيف كان عصب الحسّ يوصل إليها الأخبار من ظاهر الجسم . وكيف تقبلها وتوصل فى لمح البصر إلى عصب الحركة الأوامر بالبطش باليد أو المشى بالرجل وما أشبه ذلك عن أوامر الدماغ . أليس هناك أسلاك برقية (تلغرافية) أليست الأوامر صادرة واردة غادية رائحة ؟ أليس هذا كله يكون فى كل فقرة من الفقرات ؟ فهل الذين خلقوا على هذا النظام الجميل البديع ويأمرهم الله تعالى بالنظر إلى عجائب عظم الحمار أجدر أن ينظروا فى عظام جميع البهائم وعظامهم ؟ .

أيها المسلمون : قد آن أوان أن يظهر جيل جديد أعلم من السابقين وأحكم من الأوّلين بعد العصور الأولى التى كان نور النبوّة يشرق عليها . فالحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

تذكرة

إنه ما من عضو من أعضاء الحيوان صغيرا كان أو كبيرا إلا وهو خادم لعضو آخر ومعين له إما فى بقائه وتتميمه . أو فى أفعاله ومنافعه : مثال ذلك : الدماغ فى بدن الإنسان . فان القلب خادم له : ومعينه على أفعاله . والقلب يخدمه ثلاثة أعضاء : وهى الكبد . والعروق الضوارب . والرئة . وهكذا حكم الكبد يخدمه خمسة أعضاء : وهى المعدة . والأوردة . والطحال . والمرارة . والكليتان . وهكذا أيضا حكم الرئة يخدمها أربعة أعضاء : وهى الصدر . والحلقوم . والحجاب الحاجز . والمنخران . وذلك أنه من المنخرين يدخل الهواء المستنشق إلى الحلقوم ويعتدل فيه مزاجه . ويصل إلى الرئة ويصفى فيها . ثم يدخل إلى القلب فيجعل الدم الذى يتشبع بالكربون المنجذب من نواحى الجسم مصفى منه بما فيه من الأكسوجين . ثم يخرج ذلك الهواء مع الكربون فى النفس ويترك الأكسوجين للدم منقيا له سائرا إلى الجسم لتغذيته وهكذا . وذلك أنّ القلب فيه تجويفان علويان وتجويفان سفليان . وهما البطينان والأذينان . والدم يجرى بينهنّ بطريقة الآلة الماصة الكابسة . ولذلك شرح يطول فى علم التشريح للذين يتفكّرون فى خلق السموات والأرض ويقولون (رَبَّنَا ما خَلَقْتَ هَذَا باطِلاً سُبْحانَكَ فَقِنا عَذَابَ النَّارِ) التى تطلع على أفئدتنا يوم القيامة . بجهلنا صنعك . وبعدنا عن رحمتك .

وعدم شكرنا لك . لما أنعمت به علينا إنك أنت الوهاب ؛ وهكذا سائر الأعضاء . فلا نطيل به لئلا نخرج عمّا شرطنا فى كتابنا أن يكون نموذجا سهلا يعرفه العامّة والمتوسطون . ولا يشذّ المفكرون عن سمعه .

فصل

فى الطـــير

قال تعالى (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ . وَلِلهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللهِ المَصِيرُ) وإذا اعتبر الإنسان الطيور والحشرات وجدها كلها متزنة الجانبين طولا وعرضا وخفة وثقلا يمنة ويسرة وخلفا وقدّاما . ومن أجل هذا إذا نتف من إحدى جناحيه طاقات ريش اضطرب فى طيرانه كرجل أعرج فى مشيته إذا كان إحدى رجليه أطول والأخرى أقصر . ومن أجل ذلك أيضا متى نتف من ذنبه طاقات ريش اضطرب فى طيرانه مكبوبا على رأسه كمثال زورق فى الماء وسفينة فى ثقل صدرها وخفة مؤخرها ؛ ومن أجل ذلك صار بعض الطيور إذا مدّ رقبته إلى قدّام مدّ رجليه إلى خلف ليتوازن ثقل رجليه بثقل ركبتيه كالكراكى ؛ ومن الطير ما يطوى رقبته إلى صدره ويجمع رجليه تحت بطنه فى طيرانه كمالك الحزين ؛ وعلى هذا المثال حكم سائر الطيور والحشرات فى طيرانها ؛ والكلام على الطيور يطول شرحه ؛ إنما الذى يدهش العقلاء ويحير المفكرين مسألة توازن الذنب والرقبة وتوازن الجناحين ، وأن ذلك بميزان

عدن لانقص فيه ولا خطأ . وهذا أشبه بما ذكره العلماء فى الجمل ورقبته . فان رأسه كرمانة القبان . وعنقه كالذراع الطويل . وظهره كالذراع القصير . والحمل الذى يحمله كالذى يزنه الناس فيه . فاذا حمل حملا وأراد القيام مدّ رقبته كما يجعل القبان الرمانة فى آخر الذراع الطويل لتعادل الحمل الثقيل فى الذراع القصير . ولذلك عند علماء الطبيعة حساب عجيب . وهذا قوله تعالى (وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ) وقوله تعالى (وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ) وقوله تعالى (وَاللهُ سَرِيعُ الحِسابِ) فهذا من أعجب الحساب وأتقنه وأبدعه ، فحساب جسم الطائر والحيوان وحساب الفلك فى دورانه حساب لاترى فيه عوجا ولا تفاوتا ، فالنظام عامّ فى كلّ شىء .

فصل

فى تربية الطيور لأولادها

(١) النعامة مركبة من طائر وبهيمة ، تبيض من ٢٠ بيضة إلى ٤٠ . وتجعلها ثلاثة أقسام : تدفن قسما فى التراب . وتترك قسما فى الشمس . وتحضن قسما . فاذا خرجت أولادها أخذت هى تكسّر ما كان فى الشمس وسقتها . حتى إذا قويت تلك الذرّية أخرجت المدفون وثقبته ثقبا ليجتمع الذباب فيه والبق والحشرات والهوامّ فتأخذها وتطعمها لهنّ . فانظر كيف ألهمت النعامة أن تلك المخلوقات الضعيفة لا تقوى حواصلها أن تهضم إلا ما رقّ من الطعام أولا . وأنها إذا اشتدّت قليلا تستأهل لازدراد تلك الحشرات

التى هى أمتن وأقسى فى الهضم . وأنها إذا كبرت انطلقت إلى العشب وقويت واستقلت . وذلك بغير تعليم الأستاذين ولا تدريب المعلمين . ولا مدارس البنات والبنين . فما أجمل العلم . وما أعجب الحكمة . وما أحسن هذا الصنع .

أيها المسلمون : نعامة جاهلة موصوفة بالحمق . حتى أنها إذا فاجأها عدوُّها عمدت إلى صخرة فأخفت أعينها تحتها حتى لاترى الخطر الدَّاهم والعدوّ المهاجم فيأخذها وهى ساكنة . تلك الحمقاء تعطى علوما بالفطرة يجهلها الأمَّهات من نوع الإنسان . وليس يدركن أمثال هذه لأبنائهن إلا بالتعليم والتدريب .

(٢) الدرّاج والدجاج وأمثالهما والحمام وأمثالها .

انظر إلى فراريج الدجاج وكيف تكسر قشر البيض وتخرج وتلقط الحبّ . هكذا العنكبوت تخرج من بيضها تنسج كما تنسج أمها . هكذا البطّ يخرج من البيض فيقوم كأنه درس ذلك فى أيام سابقة . وذلك بلا تعليم ولا تأديب .

وليتعجب العاقل كيف نرى الحمام فى بيوتنا . ونرى أن الذكور من الدجاج لاتساعد الأنثى فى تربيتها لأولادها . ونرى الحمام بعكس ذلك . وهكذا العصافير . فان الذكور من هذين النوعين تساعد الإناث . فما الفرق بينها مع أن الدجاجة أحوج إلى المساعدة . إن أبناءها كثيرة . فأما ذرّية الحمامة فهى قليلة فكان الأجدر بالمساعدة من كثرت أولادها .

فاعلم أنه إنما اختصّ الحمام بتعاون الزّوجين . لأن أفراخه تخرج ضعيفة لاريش لها ولا تقدر على الحركة . كما يولد أبناء الإنسان . فلذلك ألهم الحمام والإنسان مساعدة الذكر للأنثى فى التربية . أما

الديك فلما علم الله تعالى أن الدجاج لاتحتاج إلى مشاركته فى التربية لقوة الفراخ على العدو . ولما عليها من الريش حين ولادتها لم يلهم مساعدتها . بل أبقاه معجبا بريشه فخورا بجماله موفرا كل قواه لدجاجاته الكثيرات عاطفا عليهن مساعدا لهن فى بعض أمورهن ؛ وإنما جعل الله تعالى هذا فى بيوتنا ليرينا أن المقصد من وجودنا إنما هى الحكم والعلم . فكم من آكل حماما ودجاجا وهو غافل عن أسرار خلقهما . وكم من قوم عاشوا وماتوا وهم لم يمتازوا عن الحيوان .

فكم تحت التراب من عظام نخرة كانت فوق الأرض لاتعى ماذا يراد بها . وتأكل الطير والأنعام وتهضمها فى أجوافها ولا يعرفون تفصيل خلقها ولا عجائب صنعها . كأنهم خلقوا ليأكلوا وماتوا وهم لم يتزودوا من هذه الأرض البديعة إلا الجهالة والندامة والحسرة والغفلة . أو ما علموا أن لهم عقولا تطالبهم بتغذيتها بالصور الحكمية . كما أن معداتهم تطالبهم بالقطع اللحمية ؛ فوفوا للمعدات بميثاقها . ونقضوا ميثاق العقول . فليقرأ المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها نظام هذه العوالم ، وليتفكروا فى عجائب مايلبسون ويأكلون ويشربون . فقد سبقهم الفرنجة وهم نائمون .

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء
إنما الميت من يعيش كئيبا كاسفا باله قليل الرجاء

فصل

الحيوانات على قسمين : قسم يعيش فى الخلوات مستقلا ،
وقسم داجن يعيش تحت إرادة الإنسان

فالأوّل كالغزلان والحمار الوحشى والبقر الوحشى والفيلة والآساد . والثانى كالمعز والغنم والبقر والكلاب .

أفلست ترى أن القسم الأول ، أقوى بدنا ، وأذكى نفسا . وأقدر على الحيلة والعمل والاستقلال كالغزال والبقر الوحشى . أما الثانى فانه خاضع للإنسان أسير ذليل قد ضاعت قواه الفكرية . وذهبت مواهبه الإدراكية .

فبعيشك قل لى أيها أصفى لونا ، وأصحّ بدنا ، وأكثر إدراكا . وأعظم استقلالا ، الغزال أم العنز ؟ الغزالة تعيش فى الخلوات بالعيش الهنى وتدبر أمر معيشتها بنفسها ، أما الثانية فانها قد فقدت قوّة الإدراك ذليلة الحال معرّضة للأمراض الوبيلة .

والحكمة فى ذلك أن كلّ ما أهمل استعماله من القوى يسلب من صاحبه ولا يعطى إلا ما ينفعه ؛ الحيوانات الأهليّة لما دبر أمرها الإنسان وأطعمها خمدت قوّتها الإدراكية ، ونامت غريزتها الفطرية ، فسلبت ما أعطيه الغزلان ، وشرف به الآساد فى غاباتها ، والحيات فى أوكارها من التدبير العجيب .

هكذا الإنسان قسمان : قسم خنع للغاصبين وخضع للظالمين فدبروا أعماله ونظموا أحواله ، فلا جرم تسلب من هؤلاء قواهم وتعطى

لساداتهم المستعمرين . ويسلبون عقولهم السامية . كما سلبتها حيواناتهم الدّاجنة . فهل يعطى الله تعالى السيف لغير الضاربين ؟ أو يعطى العقل لغير المفكّرين ؟ كلا ثم كلا ؛ والمسلمون إذا استناموا للفرنجة المستعمرين . وأخذوا منسوجاتهم صاغرين ، وسلموا إليهم ثروتهم لمصنوعاتهم وهم لايصنعون . فحقت عليهم كلمة ربك لأنهم لايعقلون . وأخذتهم صاعقة الطيارات وهم ينظرون . وخسفت بهم الأرض وهم غافلون (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) وظلم المسلمين هنا إهمالهم لعقولهم ، وتركهم لشئونهم . ونومهم خاضعين خاشعين بجهلهم (إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ - وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) .

فصل

هذا كتاب كتبه الله بحروف بارزة لايعقله إلا الحكماء والأصفياء

الكتاب كتابان : كتاب بالحروف الصغيرة ، والآخر بالحروف الكبيرة . فأما الذى بالحروف الصغيرة فهو ما نكتبه نحن بأقلامنا ؛ ونسوّد به وجوه الطروس . وأما الذى بالحروف الكبيرة فهو الذى كتبه الله بيده ؛ وأبرزه بصور وأشباح وقال انظروا ، ولعمرك إن أكثر الناس لايعقلون إلا الحروف الصغيرة ، فأما الحروف

الكبيرة التى كتبها الله تعالى بيده فهى محجوبة عن العقول . مكشوفة للأنظار . فاعجب لمبرقع مكشوف وظاهر مستور وجميلة زينت للناظرين وهم لايبصرون وبهجة المنظر ومن حولها لايشاهدون . ماهى . هى تلك المشاهدات التى نراها صباحا ومساء ونحن عنها غافلون .

فهاك ما ذكرته لك من الدّجاج والحمام وأشباهها كيف برزت علومها وهى مستورة . ألم تر كيف سلب فراخ الدّجاج عطف الديك وقد وهبن نعمة الرّيش والقوّة والإدراك كما ذكرناه ؛ وهكذا سلب فراخ الحمام الرّيش . وأعطيت عطف ذكر الحمام على أنثاه كما بيناه . فالغنم بالغرم ؛ أليس هذا معناه أن الله تعالى يخاطب المسلمين بالقول الفصيح المبين : أيها المسلمون : ساعد ذكر الحمام أنثاه فى تربية صغارهما ، فسلبت فى الحال ريشها . لأن كل شىء عندى بمقدار ، ولم أخلق شيئا عبثا ؛ وكل شىء عندى بميزان ، فوزنت أمر الحمام وهو ضعيف فرأيت أن أعدّ له عطف الآباء ، وعكست القضيّة فى الدّجاج فنالت القوّة ، وعدمت مساعدة الأب . هكذا أفعل فى سياسة الإنسان ؛ إنكم أيها المسلمون لما غلبكم أعداؤكم وملكوا زمامكم صرتم كالحمام لاكالدّجاج ، فألهمتهم أن ينزعوا سلاحكم كما نزعت سلاح الطيران من صغار الحمام ؛ ومن جاهد لحفظ بلاده منكم واستقلّ أعطيته السلاح ومنعت عنه الغاصبين ، فأنا لاأسلط الأقوياء إلا على الأمّة التى استكانت فاستحقّت المساعدة (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ - وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ) فاذا قلت فى كتبى السماوية

كالقرآن (وَما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القُرَى بِظُلْمٍ وأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ) ومعناه أن الإصلاح العام فى الأُمَّة يورث بقاءها وإن كانت كافرة . فإصلاح البلاد هو الذى يؤهلها للبقاء ، فلقد أريت الأمثال للناس عيانا ومشاهدة وهم غافلون ، فتطابق قولى فعلى . فلا قولى سمعتموهُ . ولا عملى تدبرتموهُ . فأين المفرُّ ولا مفرَّ لهاربين اهـ .

فصل

كيف حجب الله تعالى هذا الجمال عن أكثر الناس

لعلك تقول كأنّ فى كل ما تراهُ جمالا وحِكما . والناس يرونه وكأنهم لاينظرون . ويسيرون فى الأرض وكأنهم ميتون ، ويسمعون القول وكأنهم لايعقلون . فأىّ حكمة إذَن فى هذا الجمال ، وأىُّ معنى لذلك الكمال ؟ وإذا لم يكن للجمال مبصرون ، ولا للحكمة فاهمون . فهل خلقت لغير من يعقلها ، ووجدت لمن لايفهمها ؟ إن ذلك مما يورث الارتياب ، ويوقع الشكّ عند ذوى الألباب .

أقول : لاعجب فى ذلك لقد خلق الله أمما إسلامية وغير إسلامية ، وبرقع عن بعضهم وجوه هذا الجمال ، لالبخل فى العطية ، ولا لإلحاقهم بأذية . ولكنه يعطى من يستحقون ، ويمنع من لايستأهلون ؛ أفلا تراهُ منع الأطفال أن يتصرَّفوا فى أموالهم ، وصرف القردة والذؤبان عن الحكم العلمية . لأن الحيوان والأطفال لاقدرة لهم على إدارة الشئون ولا على إدراك الصناعات والعلوم ؛ فاذا رأيت الأمم الإسلامية القريبة العهد مشتتة الممالك . واقعة فى المهالك ، فما ذلك من منع الحضرة العلية . ولا بخل من الذّات الرّبانيّة ، وإنما كانوا

عن المعالى قاصرين . وعن إدراك المعانى غافلين ؛ فمزّقت دولهم وشتت شملهم ، ومنعهم الملوك والأمراء من درس العلوم . وصرفهم علماء السّوء عن فهم الكتاب بقشور فقهية وأحكام شرعية وقالوا لهم : ليس فى الإمكان أبدع مما كان ، وصرفوهم عن حبّ الأوطان ، والمدافعة عن الأهل والأموال ، مع أنهم يقرءون صباحا ومساء (وَما لَنا أَلاَّ نُقاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنا مِنْ دِيارِنا وأَبْنائِنا) ويقرءون أيضا (وَما لَكُمْ لاتُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَ) فى سبيل (الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساءِ وَالْوِلْدانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْ هٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً) ومعنى ذلك أن الله تعالى يقول للمسلمين قاطبة : أىّ عذر لكم فى ترك الجهاد لاستنقاذ المؤمنين المستضعفين من أيدى الكفار ، وقد بلغ حال المستضعفين ما بلغ من الضعف والأذى ، وقد كانوا بمكة لا يقدرون على الهجرة ، وهم يدعون الله تعالى يقولون : ربنا أخرجنا ، وقد استجاب الله دعاءهم ففتح المسلمون مكة ، والنبىّ صلى الله عليه وسلم كان مبشرا بذلك . أما الأمم الإسلاميّة القريبة العهد وبعض الأمم الحاضرة فإنهم ظالمون جاهلون ، قد حقّت عليهم كلمة العذاب ، ألا ترى أنهم فى شمال أفريقية يلتجئون تارة إلى فرنسا وطورا إلى إسبانيا ، وهذه الأمم الفرنجيّة يغيرون على مصر وتونس والجزائر ومراكش ، وكثير من عظماء تلك البلاد يهشّون للفاتحين ويأنسون بالمفترسين ، ولقد قال لى أحد أبناء مراكش إن الفرنجة لن يقدروا أن يبقوا يوما واحدا إلا بمساعدة المسلمين ،

وهكذا كان المسلمون أيام الحروب الصليبيَّة ؛ لايعبأون بإخوانهم ، ولا يبالون بأوطان غير أوطانهم . وجرت الحال على هذا المنوال ، ولكن اليوم قد تنبَّه بعض المسلمين كأهل الأفغان والترك والفرس فقد طردوا الفاتحين ، وهكذا قد تنبَّه أهل الهند وقاموا قومة الشجعان وقالوا للفرنجة : دعوا الشرق للشرقيين .

وهكذا أهل بلادى المصريون قد رفع الغطاء عن أعينهم : فانتبهوا لأمرهم ونالوا بعض مطالبهم .

أوَلم يقرأ بقيةُ المسلمين فى الشرق والغرب القرآن ؟ أوَلم يعلموا أن غزوة أُحُد كانت للدفاع عن المدينة ، وفتح مكة لاستخلاص الضعفاء بمكة من أيدى الكفار ، والعيب كل العيب على العلماء والملوك . أولئك الذين على الإهمال يلامون ، وعلى إضرارهم بالمسلمين يعذَّبون ، وكل عن ذَنْبه مسئول (إنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ) .

فصل

فى ذكر آيات جامعة للعلوم العصرية

عند ذلك قال الفاضل محمود افندى طلعت : هل لك أن تذكر آيات فيها تجمع العلوم من طبيعية وفلكية ، بحيث تكون الآية الواحدة فيها من كل نوع من العلوم ، فقلت له : ولماذا طلبت هذا ؟ قال : لأنى رأيت من بيانك الذى أبنته . وشرحك الذى شرحته ، أن نظام علم الطبيعة كالحيوان والنبات كنظام علم الفلك ، لأنك بينت

أن كلا بحساب ونظام لاتفاوت فيه . ولا جرم أن الذى أبدع هذا العالم لايبالى بعلم خاصّ . بل شأنه أن يكون مُهيمنا هيمنة عامّة على العلوم إذا كانت كلها على مبادئ واحدة وطراز واحد ونسق واحد . وهو الحساب والنظام . فان أهل الدنيا يفصلونها ويجعلون كل مجموعة من المسائل علما واحدا ؛ والذى تبين لى أن هذه العلوم كلها علم واحد باعتبار نظامه وترتيبه وميزانه وحسابه وتقديره وحسنه وبهجته ورونقه . فقلت : قال الله تعالى (الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِباقاً ما تَرَى فِى خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فارْجِعِ البَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ . ثُمَّ ارْجِعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إلَيْكَ البَصَرُ خاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ) يقول : ما ترى فى خلق الرحمن من اختلاف بل هو متناسب منتظم ، فارجع البصر هل ترى من شقوق فى السماء ، ثم ارجع البصر كرّتين وعاوده مرارا وانظر الشقوق ، فهما بالغت فى النظر وعاودته انقلب بصرك إليك خائبا بعيدا عن إصابة المطلوب كأنه طرد عنه طردا بالصغار وهو حسير كليل من طول المعاودة وكثرة المراجعة ، فان هذه السماء وهذا الملك منتظم عجيب الإتقان ، وقال تعالى (وَالسَّماءَ رَفَعَها وَوَضَعَ المِيزانَ . ألاَّ تَطْغَوْا فِى المِيزانِ) والميزان هو هذه النظم العجيبة البديعة ، فقال محمود افندى : هذه الآيات مجملة ، وأين التفصيل ؟ .

فصل

فى آيَةِ (إنَّ اللهَ فالِقُ الحَبِّ وَالنَّوَى)

فقلت : قال الله تعالى (إنَّ اللهَ فالِقُ الحَبِّ) بالنبات (وَالنَّوَى)

بالشجر . ولا جرم أن النبات والشجر الناميين يخرجان من الذى هو غير نام . وهو الحبّ والنوى . وهكذا الحبّ والنوى يخرجان من الشجر والنبات . وهكذا سائر الحيوان يخرج الحيوان من بيضة ، والبيضة من الحيوان . وهذا قوله تعالى إيضاحا لما قبله (يُخرِجُ الحَىَّ مِنَ المَيِّتِ وَمُخْرِجُ المَيِّتِ مِنَ الحَىِّ ذلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ) أى تصرفون عنه إلى غيره ، ثم بعد ذكر انفلاق الحبّ عن النبات ، والنوى عن الشجر وهما من علم الطبيعة ذكر ما يناسبهما من علم الفلك فقال تعالى (فالِقُ الإصْباحِ) شاقّ عَمُودَ الصبح من ظلمة الليل (وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا) يسكن فيه الخلق للاستراحة من تعب النهار (وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ حُسْبانًا) على أدوار مختلفة تحسب بها الأوقات (ذَلِكَ) التسيير بالحساب (تَقْدِيرُ العَزِيزِ) الذى قهرهما (العَلِيمِ) بتدبيرهما (وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُماتِ البَرِّ وَالبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنا الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ) فى الأصلاب (وَمُسْتَوْدَعٌ) فى الأرحام (قَدْ فَصَّلْنا الآياتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ) يعرفون دقائق الأشياء العظيمة (وَهُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ نَباتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنا مِنْهُ خَضِرًا) شيئا أخضر (نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا) وهو السنبل (وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِها قِنْوانٌ دانِيَةٌ) قريبة من المتناول (وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنابٍ) أى وأخرجنا به جنات من أعناب (وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا

وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ) أى بعض ذلك مشتبه فى الطعم واللون والهيئة والقدر وبعضه غير متشابه (انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ) نضجه (إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

ففى هذه الآيات وصف الزرع والشجر ، وبروزهما من حبّ كأنه لاحياة به ونوى لاحراك به ولا نموّ ، بحسب ما يبدو لظاهر العين ، ووصف ظلمة الليل كأنها حبّ لاحسّ به ولا حركة ، وانفلاق عمود الصباح كأنه شجرة من نواة أو زرع من حبّ ، للبهجة والنضرة والحسن فى بهاء النبات والأشجار وجمالها المنفلقات عن حبة ونواة وليل داج ، ثم أخذ يشرح عالم السماء وعالم النبات والإنسان ، فأبان أن الشمس والقمر يسيران بحساب وليسا يجريان بالمصادفة العمياء ولا بغير نظام وترتيب ، ثم أخذ يذكر النجوم التى ترى فى الليل وعددها ستة آلاف : ثلاثة آلاف فوق الأفق ، وثلاثة آلاف تحت الأفق بالنظر بالعين المجرّدة ، فأما إذا نظر إليها بالمنظار المعظّم والآلة المكبّرة فانها تبلغ مائة ألف ألف بل تزيد أضعافها ، فقال : إن هذه النجوم التى قد تكون أعظم من أرضكم بل أكبر من شمسكم التى هى أكبر من أرضكم ألف ألف مرّة وثلثمائة ألف مرّة ، كل هذه النجوم جعلت من منافعها أنكم تهتدون بها فى ظلمات البرّ والبحر ، وأنا إنما أفصّل آياتى وأبين العجائب لقوم يعلمون لينتفعوا بها ، أما الجهال فليس لهم فى هذه العجائب من سبيل ، فليس كلامى معهم لأنهم لايعقلون ما أفصل لهم من هذه الحكم والبدائع .

ولما شرح عجائب السّموات مفصّلا ، وانفلاق الصبح

عن ظلمة الليل . أخذ يشرح القسم الأوّل وهو انفلاق الحبّ والنوى عن الشجر والنبات . فقال تعالى (وَهُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) على الحبّ والنوى فخرج من الحبّ والنوى سنبل متراكب الحبّ وخرج النخل والعنب والزيتون ، ومن النخل ترى قنوانا دانية من الجانبين لها . ثم أخذ يقول (انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ) ويقول : تعجّبوا وتفكّروا وتأمّلوا (إِنَّ فِى ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) .

قال محمود افندى : ما أحسن ما وصفتَ ، ولكن قل لى هل ذلك برهان منك أن المسلمين يقرءون علم الفلك وعلم النبات وغيره وليس فى هذه الآيات وأمثالها إلا أن الله تعالى يصف الخلق إجمالا ويقول : انظروا فِى خلقى ، وتفكروا فى صنعى ، وإنى قادر على كل شىء فخافونى واتقونى لعلكم تفلحون ، هذا ما يفهمه العقلاء من هذه الآيات وأمثالها .

(ط) انظر هذه الآيات وأمثالها وتفكر فى معانيها ، ألم يقل فى هذا البيان عند ذكر النجوم والإهتداء بها فى ظلمات البرّ والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ؟ ألم يقل عند قوله تعالى (أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ) وأنّ منا من هم فى الأصلاب ، ومنا من هم فى الأرحام (قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ) فإذن هو يقول : يعلمون عند ذكر النجوم والاهتداء بها ، ويفقهون عند كوننا نطفة فى الأصلاب ثم أجنّة فى الأرحام ، وذلك أن التشريح وعلم الأجنة فى الأرحام علم دقيق لايفقهه فى العصر الحاضر إلا علماء خصوا بهذه العلوم ؛ وعلم الفلك منه ظاهر يدركه الأذكياء وباطن

دقيق يحتاج لعلم . فلذلك قال فيه لقوم يعلمون . فهل ترى يا عزيزى محمود أن المسلمين ليسوا أهلا لتفصيل الله لهم علم الفلك . وليسوا أهلا ليفقهوا علم الأجنة : أى علم الحياة (البيولوجى) يا عزيزى محمود إنك إذا نزعت إلى هذا أخرجت المسلمين من عدد الأمم الرّاقية وجعلتهم ليسوا أهلا للعلوم والمعارف . يقول الله تعالى (قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لايَعْلَمُونَ) وقال تعالى (إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ العُلَماءُ) فالله هنا يقول : نفصل الآيات لقوم يعلمون ، فاذا لم يكن المسلمون أهلا للاهتداء بالنجوم فى ظلمات البرّ والبحر فليسوا أهلا لأن يفصل لهم لأنهم لايعلمون ، وإذا كانوا لايعلمون فهم من الطائفة التى لاتفهم فى قوله تعالى (هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لايَعْلَمُونَ) وأصبحوا لايخشون الله بقوله تعالى (إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ العُلَماءُ) وكأننا بهذا نسجل على أنفسنا أننا لسنا متبعين النبىّ صلى الله عليه وسلم لأنه جاء فى القرآن (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) ويقول (وكَذَلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً) ويقول (كَذَلِكَ أَرْسَلْناكَ فى أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِها أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) ونحن أقررنا أن المسلمين يتركون العلوم فقد وصفناهم بأوصاف كلها مزرية ، وأخرجناهم من اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكتابه ، فنقول إنهم لايعلمون فليسوا أهلا لتفصيل الله تعالى لهم ، وتلا عليهم القرآن فليسوا أهلا لتلاوته وهم لايخشون الله تعالى لأنهم ليسوا علماء ، والعالم يخشى ، وهم والعياذ بالله ليسوا خير أُمّة

فليسوا أمة . لأن خير الأمم يكونون علماء . وهؤلاء ليسوا بعلماء وليسوا أمة وسطا . وليسوا شهداء على الناس لأنهم يجهلون كل شيء . هذا ما يرمى إليه قولك يا عزيزى محمود . وأنا أعيذك أن تقول هذا . وأبرئ الأمة المحمدية من هذا العيب الفاضح . إنها خير الأمم وأفضل الأمم . وأنا موقن إيقانا تامًّا أن بيانى فى كتابى هذا متى انتشر فى بلاد الإسلام . عمّ العلم ربوع المسلمين فى أقاصى البلاد . فسيعرفون الفلك . ويعرفون النبات . ويعرفون الحيوان والتشريح والصناعات جميعها . وسير القطارات . وسبك المعادن واستخراجها . وسيعرفون ذلك بعد نشر هذا الكتاب . ويعرفون سريعا أن الله عزّ وجلّ أذن اليوم للمسلمين أن يفيقوا من رقدتهم ، ويستيقظوا من غفلتهم . ويلموا شعثهم . ويرفعوا رءوسهم ، ويقيموا وجوههم ، ويقرءوا كتابهم . ويعرفوا نبيهم ، ويقدّسوا ربهم . ويسودوا الأمم أمة أمة . هذا مقصد كتابى هذا الذى أيقنت أنه بإلهام من مبدع الكائنات وخالق البريات ومظهر الحقّ ومميت الباطل إنه على ما يشاء قدير وبعباده خبير .

(م) لقد نطقت بالصّواب ، ورفعت عن هذا العلم الحجاب ، وأبنت أحسن إبانة ، وأجبت خير إجابة ؛ ولكنى أسألك أتريد أن يكون جميع المسلمين يعلمون جميع العلوم حتى يكونوا خير أمة أخرجت للناس . وحتى يكونوا من الذين يعلمون ، وحتى يصلحوا لتلاوة القرآن . وحتى يصلحوا أن يفصل لهم هذا العالم المشاهد تفصيلا . وحتى يكونوا من الذين يخشون الله ؛ إذا قلت هذا فذلك خروج عن المعقول . وما سمعنا أن أمة من الأمم أصبح أهلها جميعا

علماء . فأنت تكلف المسلمين المستحيل . وهذا لايقول به عاقل فضلا عن عالم . قلت :

فصل

فى إيضاح فرض الكفاية

لست أريد أن يكونوا جميعا علماء . وإنما أقول كما بينت سابقا أن يكون فى كل قطر من الأقطار أخصائيون بجميع العلوم ويكثرون فى سائر الأمم الإسلامية . ومتى كان العلم منتشرا استنار العامة بآراء الخاصة . وأفاض الخاصة من علومهم على العامة . ولما سئل أعرابى عن قبيلته قال : عندنا ألف عاقل . فقيل له : وكيف ذلك ؟ فقال : عندنا حازم واحد عاقل ونحن نطيعه فكأننا جميعا حازمون . وأنا أرجو بنشر العلوم أن يرتقى المسلمون ، أفلا يكونون كأهل سويسرا الذين بلغ بهم العلم أن أصبح الرجل منهم ينزل فى قطار السكة الحديدية فلا يأخذ فى يده قطعًا (تذكرة) بل يضع الأجرة فى الخزينة ، والحكومة واثقة بأفراد الأمة موقنة بأمانتهم . ولا جرم أن المسلمين متى ساروا على ما وصفنا صاروا أرقى منهم وأهدى سبيلا ، أوَ ليس من العيب الفاضح ومن العار أن ينظم الله تعالى السموات ويزينها بالنجوم ويخلق النبات ويجعله جنات ورياضا بهجة ثم يقول : أيها المسلمون قد نصبت هذا لكم لتنتفعوا به وتعلموه ، وجعلت النجوم لكم هداية ، والزرع لكم لتنتفعوا به ، ثم يلوون وجوههم ويعرضون ويقولون : كلا ثم كلا ، إنك لاتريد إلا أن نعرفك ونعبدك ، وأما الانتفاع بخزائنك والنظر فى جواهرك وقبول هدياتك وعطياتك فقد تركناها لأمم الفرنجة ، فهم بها أولى ونحن مبرَّءون

من هذه العلوم والمعارف . وكفانا أننا بك مؤمنون ، فيقول (إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ العُلَماءُ) ويقول (هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لايَعْلَمُونَ) فأنتم إذا لم تعلموا صرتم فى الدَّرجة الدنيا ولا تخشونى .

فصل

فى ضرب مثل للناس الذين جهلوا العلوم

وما مثل الناس مع ربهم إذا هم أعرضوا عن هذه العلوم إلا كمثل ملك جعل له وزراء للزراعة والتجارة والإمارة والصناعة وقال لهم : هذا ملكى فدبِّروه ، وأنا لكم معين وحافظ أرقب حركاتكم ، فأخذ الوزراء يتلون صباحا ومساء آيات الحمد والثناء على الملك وهم عن ملكه معرضون . فلا يعرفون ما فى داخل البلاد من عمل ولا زراعة ولا صناعة ولا نظام ، بل تركوه مكتفين بالثناء على الملك ، فاختلَّ أمر الرّعية ونظام الجمهور ، وذهبت الأمة سدى ، فاطلع الملك على أولئك الوزراء ، وما كسلوا عن عملهم وما جهلوا بأمر رعيتهم ، فأنزلهم عن مراتبهم وجعلهم صعاليك بعد أن كانوا وزراء وأجلس على عرش الحكم من هم به أولى وبتدبير الرعية أحرى ، ومن هم بالحكم عارفون ، وعلى نظام الجمهور مطلعون . قال ابن زريق :

ومن غدا لابسا ثوب النعيم بلا شكر الإله فعنه الله ينزعه
أعطيتُ ملكا فلم أحسن سياستَه كذاك من لايسوس الملكَ يُخلَعُه

(م) إنى أريد أن أعرف فى أىّ مقام ذُكرت آية (إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ العُلَماءُ) وفى أىّ سورة ؟

(ط) فى سورة فاطر .

فصل

فى تفسير آية (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً)

والآية هى قوله تعالى (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ . وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ) .

والجدد : الخطط والطرائق . والغرابيب : شديدة السَّواد .

يقول : فى الجبال طرائق بيض وحمر وسود شديدة السَّواد والناس والأنعام والثمرات مختلفة الألوان . وليس يخشى الله من عباده إلا العلماء . وكيف يخشى الإنسان من لايعرفه . فالخشية شرطها المعرفة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إِنِّى أَخْشَاكُمْ لِلهِ وأَتْقَاكُمْ لَهُ »

فها أنت ذا عرفت كيف ذكرت آية خشية الله تعالى . وفى أىّ مقام قيلت ، أفلست ترى خشية الله تعالى ذكرت فى مقام معرفة عجائب الدنيا ونظام السَّموات والأرض ؟ يا أستاذ محمود ألست ترى أن الأرض لما كانت فى أوَّل أمرها قبل آلاف الآلاف من السنين وهى رطبة لينة حينما بردت ثم نبت فيها النبات والشجر العظيم الهائل فى الأعصر الغابرة ، ثم كانت أهوال عظيمة طمرت تلك الغابات العظيمة والأشجار الكبيرة فى باطنها ، ثم رسبت طبقة فوق طبقة وهى فى حال بعد حال حتى وصلت الأرض إلى ما هى عليه الآن . وقد حوّلت تلك الأشجار المدهشة الهائلة العظيمة إلى فحم

حجرى . وقد جرى من رشحها سائل عظيم وهو البترول فى تجاويف كبيرة وبحيرات عظيمة مكظومة فى كظاماتها فى أعماق الطبقات السفلى . وكان من ذلك الماس أيضا . وتكوّنت كثير من المعادن كالحديد والنحاس والقصدير . وفى الأرض كبريت ومغنيسيا وشبّ وغير ذلك فوق ظاهرها .

أفليس الله تعالى الذى خزن تلك المخازن فى باطن الأرض يرضى عمن حفر عنها واستعملها ودرسها ليجرى بها السفن والقطرات ، ويسوّى بها الطعام ويخبز الخبز . أفترى أن المسلمين على حقّ إذا تركوا هذه النعم التى جعلها بين أيديهم وقالوا مالنا ولباطن الأرض . وما لنا ولاستخراج الفحم والحديد والذهب والفضة والبترول ، مالنا ولتلك المخازن التى خزنها الله تعالى فى باطن الأرض فانها لاتعنينا . نقول : فهل خلقها للملائكة . أم هى مخلوقة للبهائم ؟ كلا إنها مخلوقة للإنسان ؛ من عقل عمل . ومن لم يعقل نام فهلك واستعمل كالبهائم لحرّ الأثقال ووضع الأغلال . جاء فى آيات كثيرة (إنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) فى معرفة هذه العجائب عقل لقوم يعقلون ، وفكر لقوم يتفكّرون ، وإيمان لقوم يُؤْمنون ، وذلك فى آية (إنَّ اللهَ فَالِقُ الحَبِّ وَالنَّوَى) فانه قال فيها (اُنْظُرُوا إلى ثَمَرِهِ إذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إنَّ فِى ذٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) فبهذا النظر علم . وبه عقل . وبه فكر . وبه إيمان ، وبه تقوى . وبه فقه . وبه هداية . فماذا يريد العاقل بعد هذا البيان ؟ .

فقال الأستاذ محمود : حسن ما تلوت فأسمعنا آية أخرى عامّة ، فقلت : قال الله تعالى فى سورة النمل :

فصل

فى آية (قُلِ الحَمْدُ لِلهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبادِهِ)
والكلام على ما فيها من العلوم

(قُلِ الحَمْدُ لِلهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ . أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ ماءً فَأَنْبَتْنا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ . أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَها أَنْهارًا وَجَعَلَ لَها رَوَاسِيَ) جبالاً تتكوّن فيها المعادن وينبع من حضيضها المنابع (وَجَعَلَ بَيْنَ البَحْرَيْنِ حاجِزًا) أى جعل بين العذب والملح حاجزا من قدرة الله تعالى بحيث إنك تشرب ماء حلوا من جانب البحر الملح إذا حفرت فى الأرض ، وترى النيل والفرات ودجلة وسائر الأنهار جاريات إلى البحر فلا يطغى عليها الملح ولا هى تؤثر فيه فتجعله عذبا فراتا (أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ . أَمَّنْ يُجِيبُ المُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ . أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فى ظُلُماتِ البَرِّ وَالبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ) يعنى المطر (أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ تَعالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) .

فى هذه الآية ذكر الأرض وقد عرفت منافعها فى علم طبقات الأرض والجبال والبحار والأنهار . ثم أشار إلى أن المسلمين إذا عرفوا هذه العلوم . وقد اتجهوا إلى ربهم مضطرّين جعلهم خلفاء الأرض . ثم ذكر أنه يهديهم فى ظلمات البر والبحر ويرسل الرّياح والمطر . وفى ذلك فوائد ذكرناها ولا نعيدها خيفة التطويل .

فصل

فى تفصيل العلوم العصرية المستخرجة من آيات سورة النحل

قال الله تعالى فى سورة النحل (خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بالحَقِّ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ . خَلَقَ الإنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ) جماد لاحسّ له بحسب الظاهر (فاذَا هُوَ خَصِيمٌ) منطيق مناظر مجادل (مُبِينٌ) للحجة (والأنْعامَ) الإبل والبقر والغنم (خَلَقَهَا لَكُمْ فِيها دِفْءٌ) مايدفأ به فيقى البرد (وَمَنافِعُ) نسلها ودرُّها وظهورها (ومنها تأكُلُونَ) أى تأكلون ما يؤكل منها كاللحوم والشحوم والألبان (وَلَكُمْ فِيها جَمالٌ) زينة (حِينَ تُرِيحُونَ) تردّونها من مراعيها إلى راحتها بالعشىّ (وَحِينَ تَسْرَحُونَ) تخرجونها بالغداة إلى مراعيها ، فان الأفنية تتزين بها فى الوقتين ويجلّ أهلها فى أعين الناظرين إليها (وَتَحْمِلُ أثْقالَكُمْ إلى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بالِغِيهِ إلاَّ بِشِقِّ الأنْفُسِ) أى تحمل أحمالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بكلفة ومشقة (إنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ) حيث رحمكم بخلقها لانتفاعكم وتيسير الأمر عليكم (وَالخَيْلَ وَالبِغالَ

وَالحَمِيرَ) ذوات الحوافر : أى وخلق لكم هذه (لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً) أى لتركبوها وتتزينوا بها (وَيَخْلُقُ ما لاتَعْلَمُونَ) غير هذه الدَّوابِّ التى تركبونها . وإنما ذكر هذه بعد البغال والحمير والخيل التى تركبها وتتزين بها . ولم يذكرها بعد الأنعام من الإبل والبقر والغنم ليدلنا على ما كنز فى أرضه وما دفن فى باطنها من الحديد والفحم . وأن هذه ستخرجون منها قطارا سائرا على البرّ وآخر مثله فى البحر . فان هذه القطر الجارية . الحاملة لأمتعتكم . التى تركبون عليها من بلد إلى بلد . والمناطيد الهوائية التى تسير فى الجوّ . والغوّاصات التى تجرى تحت الماء . مما سأخلقه لكم بعد حين تقوم مقام الخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة . وكما أبحت لكم هذه الحيوانات وأنعمت عليكم . هكذا أبحت لكم القاطرات وفحمها المخزون فى الأرض والبترول . وما أشبه ذلك . فلكم أن تنتفعوا بها وتشكرونى (لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) والشكر صرف العبد جميع ما أنعم الله تعالى به عليه فيما خلق لأجله . ولا جرم أنى أنعمت عليكم بالقطارات والطيارات والفحم الحجرى والبترول وسائر المعادن . فاذا تركتم نعمتى وأبيتم قبولها فان ذلك منكم كفر لها وعدم شكر (وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ) عليكم فى الدُّنيا بالذلّ وفى الآخرة بجهنم وبئس المصير لتستوفوا العقاب . هذا ، ولنرجع للآية التى نحن بصددها . قال تعالى (وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ) بيان مستقيم الطريق الموصل إلى الحقّ (وَمِنْهَا جَائِرٌ) مائل عن القصد والاعتدال (وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ . هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ) السحاب (مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ)

أى ما تشربونه (وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ) ترعون . يقال : سامت الماشية وأسامها صاحبها (يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ . وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا) هو السمك (وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا) كاللؤلؤ والمرجان تلبسها نساؤكم (وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ) جوارى فيه تشقه بحيزومها . من المخر وهو شق الماء (وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ) من سعة رزقه بركوبها للتجارة (وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ) أى جبالا رواسى (أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ) كراهة أن تميل بكم وتضطرب (وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) أى وجعل فيها أنهارا وطرقا لعلكم تهتدون إلى مقاصدكم وإلى معرفة الله تعالى (وَعَلاماتٍ) معالم يستدل بها السابلة من جبل وسهل وريح والبوصلة المعروفة فى السفن والبر (وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ) بالليل فى البرارى والبحار (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ) والمراد من مَنْ لايخلق الأصنام (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا) لاتضبطوا عددها فضلا عن أن تستطيعوا القيام بشكرها (إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) .

هذه الآيات ذكر فيها الإنسان والحيوان والنبات والبحر وما فيه، وذلك كترتيب علماء الطبيعة الذين جعلوا العالم العضوى والجمادى هكذا : الإنسان ثم الحيوان ثم النبات ثم المعادن ؛ يقول الله تعالى : خلقتكم من نطفة ؛ وأودعتكم فى الأرحام ؛ وجعلت أعضاءكم منفصلة منظّمة . من أعضاء بطش كاليدين والرجلين ؛ وأعضاء حسّ من سمع وبصر وذوق ولمس . ومن فكر وذاكرة وحافظة ومخيلة ؛ ومنكم من يوحى إليه . ومنكم الحكماء . كل ذلك من نطفة ؛ وسخرت لكم جميع الأنعام وكل ما تركبون من الدّوابّ وأبحت لكم ما فى باطن الأرض من الفحم الحجرى والبترول والمعادن لتركبوا قطرات الطرق الحديدية التى لاتعلمونها من قبل ؛ وهيأت لكم الطيارات الهوائية والغوّاصات البحرية . لتشاهدوا عجائب الجوّ وبدائع البحر . وتروا ما لاعين رأت قبلكم ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب آبائكم الأوّلين . وجعلت لكم الزرع والشجر وبدائع الخلقة وعجائب الطبيعة . أنشأتها لكم مختلفات الألوان بديعة الأشكال والخواصّ والطعم والرائحة . منها الحلو والحامض والعفص والمرّ والحرّيف والقابض والسامّ والقاتل والشافى والمغذّى ، ومنه طعام الآدميين ، ومنه ما خلق للدوابّ مما لايعلمه إلا أولو الألباب ، وأنعمت عليكم بالبحر لتأكلوا سمكه ولتستخرجوا الدرّ والمرجان . ولتسيروا السفن بمخر عبابه جاريات فى بحر الظلمات بين أوروبا وأمريكا . وفى المحيط الهادى . والبحر الأحمر والأبيض المتوسط (بحر الرُّوم) وبحر نيطش والبحر الأسود وبحر البلطيق وبحر الهند وبحر الصين . كل ذلك سخرته لكم لتبتغوا من فضلى بطلب

التجارة . ولم أخصّ الفرنجة به بل عممته للناس أجمعين . أقول : ألم يأن للمسلمين أن يعقلوا ويتفكّروا وينظروا ويذكروا أن المرجان فى البحار والتجارة بالسفن فيها فى يد أمم الفرنجة . وهكذا الأمريكيون . أما المسلمون فلا ينقصون عن ٣٥٠ مليونا . أوَ ليس من العجب أن المرجان فى يد الفرنجة . وسفن التجارة والحرب لهم وحدهم . وليس للمسلمين من ذلك إلا القليل ؟ فألهم اللهمّ رجال أمّتنا الإسلامية روحا بها يستيقظون من غفلاتهم . ويُرجعون مجدهم إنك على ما تشاء قدير .

هذا . ولأقتصر على هذه الآيات فى هذه الرسالة خيفة السآمة والتطويل . ولقد جعلتها خطابا عامّا للمسلمين فى أنحاء الكرة الأرضيّة .

ومن أعجب الأمور أن هذه الرسالة صادفها فى أوائل طبعها أن حضر إلى مصر الأستاذ العالم الصينى « وان وين كين » من ناحية تنزن . واطلع على الملازمة الأولى منه وقال : هذا الذى كنا نريد أن نعرفه ببلادنا . فان الوثنيين شرُفوا بالعلوم العصرية فى هذه السنين . لاسيما بعد الحرب العظمى . أما المسلمون فقد وقف علماؤهم حائرين لايعرفون ما يصنعون . أيقرءون العلوم العصرية وهل هى توافق الدين ؟ . أما أنا اليوم فقد وصلت إلى الجواب عن تلك الأسئلة فى هذه الرسالة وفى غيرها . وعرفت أن دين الإسلام يطلب العلوم طلبا حثيثا . وأحمد الله تعالى على ما أنعم به من الهداية . وقد ترجمها إلى اللغة الصينية وأرسلها إلى بلاده مترجمة . وهكذا ترجمها إلى اللغة الجاوية فى الطبعة الأولى بعد الاستئذان بعضُ أفاضل

علماء البلاد الجاوية . وقد زدت فى هذه الطبعة بعض آيات . وعسى أن أزيد فى هذا الخطاب فى طبعة أخرى من الآيات القرآنية ؛ والعجائب الحكمية مما به يرتقى المسلمون . ولقد أصبحت موقنا إيقانا تاما بطريق الإلهام . ومما أعرفه من أحوال المسلمين . أن هذه الحركة العلمية ستجعل المسلمين حاملين رايات الفتح العلمى فى مستقبل الزمان . وبهم يرتقى نوع الإنسان ، ويكونون نورا وهدى للعالمين .

وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ وآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ

كلمـــة

لمؤلف الكتاب

لقد قلت غير مرّة فى هذا الكتاب إننى موقن أن انتشاره بين المسلمين سيجعل العلم بينهم منتشرا فى أسرع ما يكون . وأنا أقول الآن مصرّحا بعض التصريح إنى لم أقل هذا من تلقاء نفسى ولكنى ألهمته إلهاما . وأيقنت به إيقانا . ومما يبشّر بنجاح الأمة وقرب رقيها وسرعة تقدمها . أن هذا الكتاب أسرع إليه أهل الغرب والشرق من المسلمين إسراعا ليس له نظير فى الكتب الدينية والعلمية . وطلب كثير ترجمته . وترجم لبعض اللغات ونفدت نسخه فى أقلّ من سنة .

وأقول : على كل مسلم عرف مضمون هذا الكتاب أن يتقرّب إلى الله تعالى ويعلم غيره وينشر الفكر بين المسلمين .

والمقصر لاعذر له (فَبَشِّرْ عِبادِ . الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أحْسَنَهُ) إن الله تعالى أذن اليوم بارتقاء المسلمين وهو الذى بشّر باقتراب أيام سعادتهم . وأن هذه العلوم ستعمّ ربوع المسلمين . وتريهم الآيات فى الأنفس والآفاق اهـ .

فهـــرست

القرآن والعلوم العصرية

صحيفة

٣ خطبة الكتاب

٤ دعوة المسلمين إلى كتاب الله وسنة رسوله

٧ الإسلام دين علم وعمل

٩ فصل فى وعد الله تعالى للمسلمين بالتمكن فى الأرض والاستخلاف فيها

١٠ فصل فى أن المسلمين ينقصهم أمران : الاتحاد ، والعلم

١١ ضرب مثل لحال المسلمين مع غيرهم

١٢ معنى الجهاد

١٥ طرق اتحاد المسلمين

تعداد المسلمين فى الأرض

١٧ طرق الاتحاد

كيف يتحد المسلمون

٢٢ فصل فى أن الكعبة المشرفة أيام الحجّ دار ندوة

٢٤ فصل فى طرق نشر العلم والصناعات بين المسلمين

٢٦ فصل فى طلب علم الفلك

٣٠ فصل فى الطرق العامة لتشويق المسلمين للعلوم

٣١ فصل فى تفسير قوله تعالى (الله الذى خلق السموات والأرض) إلى آخر الآية
٣٥ فصل فى وصف السحاب وعجائبه
٣٧ فصل فى علم النبات
٤١ فصل فى البحار
٤٢ فصل فى الحشرات
٤٤ العنكبوت
٤٥ لطيفة فى بحث العلماء فى تجزئة المادة
٤٨ فصل فى وصف الحيوان
٥٠ فصل فى اختلاف الحيوان فى الحركات
٥٣ فصل فى قوله تعالى (وانظر إلى حمارك) ووجوب علم التشريح
٥٥ فصل فى وصف فقرة واحدة من فقرات الظهر
٥٧ تذكرة فى بيان أن ما من عضو إلا وهو خادم لعضو آخر
٥٨ فصل فى الطير
٥٩ فصل فى تربية الطيور لأولادها
٦٢ فصل الحيوانات على قسمين : قسم يعيش فى الخلوات مستقلا . وقسم داجن يعيش تحت إرادة الإنسان
٦٣ فصل هذا كتاب كتبه الله بحروف بارزة . لايعقله إلا الحكماء والأصفياء
٦٥ كيف حجب الله تعالى هذا الجمال عن أكثر الناس
٦٧ فصل فى ذكر آيات جامعة للعلوم العصرية
٦٨ فصل فى آية (إن الله فالق الحبّ والنوى)

صحيفة
٧٤ فصل فى إيضاح فرض الكفاية
٧٥ فصل فى ضرب مثل للناس الذين جهلوا العلوم
٧٦ فصل فى تفسير آية (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء)
٧٨ فصل فى آية (قل الحمد لله وسلام على عباده) والكلام على ما فيها من العلوم
٧٩ فصل تفصيل العلوم العصرية المستخرجة من آيات سورة النحل
٨٥ كلمة لمؤلف الكتاب

بحمد الله وحسن توفيقه قد تمّ طبع كتاب :

القرآن والعلوم العصرية

للفيلسوف الإسلامى الشيخ طنطاوى جوهرى

مصححا بمعرفة لجنة التصحيح برياسة الشيخ أحمد سعد على .

القاهرة فى ٧ ربيع الأول سنة ١٣٧١ هـ — ٦ ديسمبر سنة ١٩٥١ م

ملاحظ المطبعة
محمد أمين عمران

مدير المطبعة
رستم مصطفى الحلبى